الفكر

مجلة ثقافية

تصدر بتونس شهريا

مؤسسها ومديرها المسؤول : محمد مزالي

رئيس التحرير : البشير بن سلامه

الادارة : 13 نهج دار الجلد ـ تونس
تلفون : 260.237
الحساب الجارى : 337.69 ـ تونس
العنوان : ص. ب : 556 تونس 1025

● تصدر مجلة الفكر عشر مرات في السنة وتحتجب في شهري أوت وسبتمبر .

● قيمة الاشتراك السنوى :

الاشتراك العادى بتونس والبلاد العربية 6 دنانير .

الاشتراك بالخارج : 7 دنانير .

اشتراك الانصار : 12 دنانير .

● الاشتراكات يرسل معلومها في حوالة بريدية باسم المجلة او يصب في حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس .

● الرسائل لا ترد نشرت ام لم تنشر .

● المراسلات تكون جميعا باسم :
مدير مجلة « الفكر »
صندوق البريد عدد 556 ـ تونس

العدد 9 جوان 1986 ـ السنة الواحدة والثلاثون

Revue Mensuelle Culturelle - 31° Année - N° 9 - JUIN 1986

طبع الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجي سليم ـ تونس
تحت رقم 459 / 1986 الايداع القانوني 2 / 1986

« ورق الفكر » من انتاج « الشركة القومية لعجين الحلفاء والورق »

لكل امرئ ما سعى ...

تحدينا الشك والفشل والسخرية وتحدينا «التمشرق» و«التمغرب» .وكنا و لم نزل ، بعون الله ، نضم جهودنا الى جهود الأمة جمعاء في معركتها المصيرية من أجل الوجود الأفضل وخلق الانسان التونسي الجديد ، لاتزيدنا العقبات ورواسب الماضي الثقافي الا عزيمة ورسوخا في العمل والجهاد.

بحقدنا على «الحقد» وسعينا الى تأليف القلوب وشد العزائم وحرصنا على اجتناب المعارك اللفظية العابرة والتصدي الى حي المشاكل وجوهري الامور ، وفقنا – والحمد لله – الى تكوين أسرة أدبية غيورة على «الفكر» مؤمنة بنفسها ، مؤمنة بتونس حاضرا و مستقبلا – وملتزمة خدمة القضايا الإنسانية والإخلاص لرسالة الثقافة الحق.

بعملنا الدائب ، الصامت ، المجرد، نعتقد أننا ساهمنا في استئصال الكثير من العقد النفسية المعرقلة للعمل الأدبي وقضينا على الشك في قابلية طبيعتنا وتربتنا وأدمغتنا وقرائحنا على الابداع ، كغيرنا ، لااكثر ولا أقل ، وعلى ترسيخ معاني الثبات والديمومة والايجابية في نفوس الكثيرين ممن اشفقوا على هذا المشروع الثقافي في أولى خطواته من التعثر والاحتضار ثم الفناء.

محمد مزالي

إلى القارئ

في اسباب الضحك والاضحاك

بقلم : البشير بن سلامة

كنت عالجت في هذا الركن من المجلة منذ أكثر من ثلاث سنوات مسالة الضحك والاضحاك (نوفمبر 1983) (*) وركزت تحليلي على وصف هذه الملكة الخاصة بالإنسان وبيان ضرورتها للفرد والمجتمع ودورها في حياة الناس . وفي هذه المرة عن لي أن أتقصى اسباب الضحك والاضحاك متسائلا : « لماذا نضحك ؟ وكيف يضحكنا الغير ؟ وما الذي يحفز الواحد منا ليدفع الآخر على الضحك ؟ » .

يقول « برقسن » الفيلسوف المعروف : إن سبب الضحك هو « تلبيس المكانيكي على الحي » ويعني بهذا أنه عندما تكون امام ملامح أو حركات صادرة عن حي ثم هي تتحول فجاة الى ملامح أو حركات جامدة فان رد الفعل الأولي يكون الضحك . فانت تميل الى الابتسام عندما يكون أمامك رجل وقور يمشي الخيلاء مترنح الخطوات يضرب برجليه الارض ضربا واذا به تجره يده وساقه في حركة آلية فجئية الى حضيض الارض وتتدارك نفسك لتهب لنجدته وارجاعه الى وضع الأحياء السوي ولكن تسمع في الأثناء ضحكة عالية من صبي شاهد ذلك المشهد ولم يتمالك عن الانقياد الى احساسه العفوي الطبيعي.

(*) راجع المقالة في كتاب « في رحاب الفكر والادب » الصادر سنة 1986 ـ القاهرة عن الهيئة المصرية للكتاب والدار التونسية للنشر .

ولقد استغل « شارلي شابلين » هذه الحقيقة وصور لنا عن طريق السنما شخصية فريدة جعلت من الكائن الحي السوي يتصف باوصاف آلية جامدة . وكان أن تفطن الجاحظ الى هذا الجانب المضحك من الانسان فوصف لنا قاضي البصرة ووقاره المفرط الذى أدى به الى احتمال أذى الذبابة المتنقلة فى وجهه وهو لا يحرك ساكنا ولا يرى طردها وذلك امتلاكا للنفس وافراطا فى الجد .

فانت تضحك من ذاك الذى استعاض عن ملامح وجهه الطبيعية بقناع جامد لا يصور واقع الناس ولا يعكس مشاغلهم بل هو أصبح بعيدا عنهم فى المكان والزمان كما صور المويلحي فى كتابه « عيسى بن هشـام » بطلـه البـاشا وكما ركن المسرحيون ـ فى كثير من الاحيان ـ الى الأقنعـة لدفع الناس الى الضحك أو إقحام المهرج على الركح للتخفيف من الجد القاتل فى المسرحية .

وأنت تضحك من ذاك الذى لا يعرف الضحك الى نفسه سبيلا فكأنما فطر على البكاء أو تم تمليسه من طين المأساة وكأن ملامح وجهه قدت من صخر او نحتت من جماد أو ان قسمات سحنته المتجهمة ثقلت على عضلات فمـه واثرت فيها الى حد الارتخاء والعجز عن الانفراج اللهم عند الاكـل او النهش وشان هذا « الانسان » لا يبعد عن شان بعض الوحوش لانه جبل على أن ينظر شزرا الى الغير ولا يهمه منه الا البحث عن المطعن الذى منه يفوز بنهشة تودي أو عضة تؤلم .

وأنت تضحك ممن برزت اسنانه مصفوفة وكانه لا شفاه له ، خلق هكذا مفتر الاسنان على الدوام « يضحك جبلة » فى كل المواقف السارة والمحزنة المأسويةوالكوميدية وهو فى هذا يذكرك ببعض القردة تتصنع الضحك او تقلده فى تكشيرة لست تدري أهى ارتياح أم امتعاض ؟ وأصبح ديدن بعض السياسيين اسوة بما اشاعه السياسيون الامريكان من ضرورة ترك الوقار والجد الى المرح والدعابة الدافعين الى الضحك والامتاع .

وأنت تضحك ايضا من جراء تكاثر الهم وتراكمه على نفسك تتحمـل مـا يمكن لك تحمله ثم يضيق بك الحال وعوضا عن ان تنفجر بكاء وحزنا ينطلق

الضحك صاخبا مزلزلا مروحا عن النفس . وما يصح عن الفرد يصح عن الجماعة وهو ما تلتجيء اليه الشعوب فى كل الامصاروالعصور عندما تركن الى « النكتة » الساخرة للتفريج عن الهموم المتاتية من الظلم والقهر . وقد لجا بيرم التونسى الى هذه الطريقة للضحك من العائلة المالكة المصرية ومن الاستعمار البريطانى والفرنسى لما انتقل الى تونس . وقبله لجا الشعراء فى عهد المماليك الى الشعر الساخر تتداوله العامة على الالسن كسلاح لمقاومة الظلم والجبروت .

هذه كلها حالات تضطر الانسان الى الضحك اضطرارا ولكن هناك حالات عديدة تنشا عن دافع الاضحاك يتعمدها صاحبها ليشيع المرح والفرح فى النفوس ولهذا لم يخل شعب من الشعوب من شخصية أو شخصيات دورها هو إضحاك الناس فعرف المجتمع العربى الاسلامى جحا فى القديم وعرفت الشعوب العربية عن طريق السنما والشاشة الصغيرة اسماء كثيرة .

إن هؤلاء لا يمكن لهم أن يدفعوا الناس الى الضحك الا اذا كانت لهم ثقافة عالية ومعرفة دقيقة بالنفس البشرية وبالمجتمع الذى يعيشون فيه ولكن الشرط الاساسى الذى لا مندوحة عنه هو امتلاك الروح الفكهة ولعل العرب اشتقوا هذه الكلمة من لفظة الفاكهة قبل لفظة الفكاهة اذ أنهم سموا الرجل الفكه هو الذى ياكل الفاكهة وهى الثمار الزائدة عن الاغذية الضرورية للانسان فكان تناول الفاكهة عند العرب دليل على الرفاه وهو من الكماليات المتممات للحضارة .

لذلك لم يتصور العرب انسانا مكتملا اذا لم يكن يحمل بين جنبيه روحا فكهة وساروا على ذلك سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم اذ قالوا : إن النبي كان من أفكه الناس مع صبي ومن أفكه الناس اذا خلا مع أهله وكانت فيه دعابة. وروي انه قال لجابر : « أبكرا تزوجت أم ثيبا ؟ فقال : بل ثيبا . قال : « فهلا بكرا تداعبها وتداعبك » ومع هذا فان عمر بن

الخطاب لم يكن محبذا لهذه النزعة اذ ذكر له علي بن أبي طالب للخلافة فقال : لولا دعابة فيه .

ولكن هذه الروح الفكهة العالية لا بد لها من أن تلتجيء ـ في بعث المسرة وبالتالي الاضحاك بدرجاته العديدة ـ الى أدوات متنوعة منها الملحة و « النكتة » . والنادرة والدعابة وكذلك تركن الى وسائل مختلفة تبدأ بالمزاح الى الاستهزاء الى السخرية وغيرها .

فالملحة هي التي تكون في أغلب الاحيان بعيدة عن التحقير اذ هي تعتمد الكلام المليح وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصادق يعطى ثلاث خصال : الملحة والمهابة والمحبة » وقال الأصمعي : بلغت بالعلم ونلت بالملح .

أما «النكتة» فهي لفظة لم يعرفها العرب قديما ولكنها شاعت الآن على الالسن وهي تتناول حياة الناس والافراد بالتجريح والتهكم ولعلها ترجع الى ما كان يسمى عند العرب بالنادرة .

وخلاصة القول : إن ملكة الضحك التي اختص بها الانسان ـ وما أولدته في البشر من بحث عن الاضحاك وقدرة عليه ـ جديرة بالدرس خاصة في مجتمعات العالم الثالث التي فقدت أغلبها مقومات الشعوب الباسمة بله الضاحكة وضيق عليها حتى فيما كانت تتمتع به عندما كانت تحت نير الاستعمار أو في عصور القهر . ولعله بات من الاكيد على هذه الشعوب ان تطالب بحقها في الضحك كما تطالب بحقها في الشغل والتعليم والعلاج خاصة وأن الضحك ليس فرديا بل جماعيا .

البشير بن سلامة

عِند أبْوابِ القيْروان ..

شعر: منصف الوهايبي

قلْ لنا : من أيِّ بابٍ (*) جئتها ؟
كيف تناهيتَ إلى أبراجها من بَعْدِ أيْنْ ؟
كيف قلتَ اللّونَ .. صرتَ اللّونَ ..
حتّى استسلم الضّوءُ وأغفَى في يديكَ الجمرتَيْنْ ؟
آه أعمَى في بساتين أبي !
فَلْتَكُنْ ريشتكَ الضّوءَ الذي يقتادُ هذا المغربِي
يطفىءُ اللّيلُ فضاءَ الزرقةْ
يطفىءُ الوردةَ والأعمَى الذي
كانَ يغنّي عند أسوار البساتينِ وحيدا ..
يتخفّى الليل في هيئةِ صيّادٍ ،
ويستجمع في سلّتهِ سبْعَ نجوم ،
ويضيءُ الوقت والخفّاش والدّودةَ في بيضتها المستغلقهْ
وعصَا الأعمَى وليلَ القيروانْ
وسريرَ امرأةِ الغابات
والرّيحَ التي تجتثّنا قبْلَ الأوانْ .
قيروانُ الرّيح إذْ تسلخُ لحْمَ اللّيلِ حتّى

(*) بول كلي : رسام ألماني شهير ، زار القيروان في بدايات القرن . وعنوان القصيدة اسم لاحدى لوحاته .

ينتأُ العظمُ ، ولا شيءَ سوى الطَّيرِ الذي يأوي
إلى شاهِدةِ القبْرِ ..
ـ لماذا صوّحَ العودُ الذي رويْتُ في قبركَ يا جدّي ،
لماذا لمْ أعُدْ أسمعُ إلّا دودةَ تنْغلُ في رثِّ العظامْ ؟
ـ آنَ أن ترتاحَ يا ابني في جواري وتنامْ .
(ودَاعاً أيّها الجدُّ الذي يمضي وما استوفى وديعتَهُ
فهذي بندقيته مدلاةٌ بصدر البيْتْ
وهذا سرْجُهُ .. قُلْ : ـ كيفَ كنتَ تروّضُ
الدّنيا فتسلمكَ القيادَ ؟
وفي رمَادِ الفجْرِ يشرقُ بيتنا
وتُعدُّ أمّيَ زادَ رحلتنا وتأخذني إليْهِ
وبينَ الدّورِ والعسَسِ الذينَ غفَوْا
على العتباتِ نسْترِقُ الخُطى
ونسوخُ في رملِ الطّريقِ .. نرى القُرى تنْأى ..
نرَى الخرنوبَ منتصباً كقَرْنيْ أيّلٍ ..
وأراهُ ملفوفاً ببرنسهِ
وكَرْمتُهُ مدلاةُ الغصونِ علَى مُريديهِ ..
أُنَاديهِ .. فينهضُ لي
يقبّلُ بينَ عينيَّ المفتّحتيْنِ
علَى زرقِ الجبَالِ وبندقيّتِهِ ويفسحُ لي .
وداعاً أيّها الجدُّ الذي يمضي
وهذي الرّيحُ تنهضُ مرّةً أخرى
وتفتحُ ثغرةً في القلْبْ .
ودَاعاً أيّها الجدُّ الذي يمضي

وكانتْ بندقيته ملاذا في الزّمانِ الصّعْبْ) .

* * *

لَمْ يَرِثْ يا أبَتَا عَنْك سِوَى
ذاكرةٍ عمياءَ تستوثق خيط الأمسِ باليومِ
فينحلُ ، ولا شيءَ سوَاهْ .
أوَ لَمْ يَأنِ لهذا المغربي
أنْ يقولَ النّارَ .. أن يكشفَ خيط الضّوءِ في ليلِ المتّاهْ ؟
يستدقّ الحرفُ حتّى يتلاشى
كالفتى مقتفيا صَحراءَهُ
أو تتعرّى حلْقة المِيم علَى باب قديمٍ
في النهاياتِ وتلتفّ على عنقكَ حتّى تتدلّى روحُكَ المهترئَهْ
قيروَانُ المرأة الأولى التي أغْوَتْكَ ..
هَلْ تذكرُ بيَتنا نائِما في طَرَفِ اللَّيلِ ؟
وَطَيْفَ امرأةٍ مِنْ زَبَدِ البَحْرِ إليك انحدَرَتْ ؟
كنتما تقتسمانِ الوهم والذكرى ،
ولايبقى من الليلة إلا حجرُ الملح
ولا يبقى من المرأة إلا رغوة منطفئهْ :
حائطا خضبه النسوة بالحناء ..، بارا مقفلا ..
سَيّدة تجنحُ في زينتهَا ،
منزلا أخْضَرَ مفتوحا على الجامعِ ..
(هل ينتظر العاشقُ حتّى يهْدأ الشّارِعُ ؟ أمْ يَدْخُلُ مأخُوذا بريحِ العُودِ والصّنْدَلِ ؟)
يَوْما ثامنا تنهض فيهِ القيروانْ
مِنْ رَمَادِ الزّمَنِ الآتِي ،

نِسَاءٌ سيهيئْنَ سريرَ اللَّيلِ ..
يَغْسِلْنَ بماءِ الوردِ حزنَ الضيفِ ..
(هذي رُوحُكَ ابتَلَّتْ وَهذا جسَدٌ قَاسَمَكَ الفرْحةَ
يسترخي، فهَل ترقبُ حتّى اللَّيلِ؟ أمْ تنهضُ إذْ تأخذكَ الحالُ
وتمضي بين أشجارِ توابيتَ ؟)
مزَاراً يستجدّ الزّينةَ الأُولى
ضَريحاً يَحتَفي بالقادماتْ
شمعَةً تَغْرَقُ في عُنْصُرِهَا قافلةً مُنْتَجِعَةْ
كانَ يَوْمُ الجُمُعَةْ ..
تَقفُ الشمس على رأسِ جدارٍ هَرِمٍ ..
تذبل في صُفْرِ الطَّوابي والكرومْ .
هُو ذا الأبيضُ يستعصي على الشمس فلا تفتحهُ إلاّ النجومْ .
يستوي في الأفُقِ الأزرَقِ بابٌ ، يعبرُ الطّفلُ إليه ..
ينحني ضَوءٌ على مُؤتلقِ الزّيتِ ويصفرُّ الرّخَامْ .
- أيّها الطّفلُ الذي يخبطُ في الصّحنِ وحيدا
ما الذي تفعلُ في هذا الظلامْ ؟
أيّها الأعمى الذي صِرْتُ ،
إلى أيَّةِ مَهْوَاةٍ سيقتادُكَ هذا الجسَدُ ؟
تستديرُ اللّغةُ المنخطفةْ
يجلس الأعمى إلى سَاريةٍ .. يَغْرَقُ في عنصرهِ
ضَوْءٌ وتمتدّ يَدُ
تمسحُ الوجهَ وترمي برنُسا أبيضَ فوقَ الجثّةِ المرتجفةْ .
(سلَاماً أيّها الجدّ الذي يأتي
أهذا ما تبقّى منكْ ؟

ضريحٌ يكتسي بحشائش النّسيانْ ؟
مزارٌ يستجدُ الزّينةَ الأولى ؟
سلكتُ طريقه الجَبَليَّ ..
قلتُ : – لعلّه يفضي إلى غاباتْ
وقلتُ : – لعلّه يفضي إلى ميناءْ
وقلتُ : – لعلّهُ !!
واليومَ إذ تتطابقُ الأجفانْ
مُبَلَّلَة بماءِ الحزن أسمعهُ
يقبّل بينَ عينيَ المغمَّضَتَيْن
أقولُ : – حزنتُ يا أبتَا
يقولُ : – الحزنُ لا يَجزيكَ .. فاتبعْني
أقولُ : – أخافُ يا أَبَتَا
يقولُ : – الخوفُ لا يحميكَ ..
وأنظرُ .. لا أرَى شيئاً
سوَى أفُقٍ من الصبّارِ والطَّرْفاءْ
وبَابٍ من هزيعِ الحلمِ مفتوحٍ علَى الصّحراءْ .)
أَبَدا هَذَا الجنوبْ
أبَدا هذي الرّمال الحاصبَهْ
أبدا يبحثُ في هَذي السّهوبْ
عنْ بقايا النّارِ مِنْ ريحٍ لريحِ
فَهْوَ في الغيبةِ يَسْعَى
وَهْوَ في أجراسها
يسألُ عن بيتٍ تَوَارَى أوْ ضَرِيحِ .

منصف الوهايبي

عِبَرٌ مشرقيّة للوحدة المغربيّة

بقلم : د. محمد فاضل الجمالي

اني أنتمي (*) الى جيل نشأ على مبدإ الوحدة العربية فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . فجيلنا آمن بأن الوطن العربي يمتد من الخليج الى المحيط . وقد عبر الوطنى السورى السيد فخرى البارودى (رحمه الله) عن ذلك فى النشيد الذى انتشر آنذاك ومطلعه :

بلاد العرب اوطانى من الشام لبغدان
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

فجيلنا كان يؤمن ويعمل من أجل **تحرير البلاد العربية وتوحيدها وتجديد بنائها .**

ثم إنى شخصيا ممن كرسوا حياتهم فى خدمة أمتهم عن طريق العمل التربوى والفكرى وعن طريق العمل السياسى والاعلامى . وكان من حسن حظى ان ساهمت فى الدفاع عن استقلال سوريا ولبنان ثم عن استقلال كل من ليبيا والمغرب وتونس والجزائر فى المحافل الدولية . وكنت وما أزال أدافع عن القضية الفلسطينية وحق الفلسطينيين بتقرير مصيرهم وتأسيس دولتهم فى فلسطين منذ ما يقارب الاربعين سنة .

وأخيرا مع انى عراقى النشأة والانتماء الا ان أسرتى حجازية الاصل ثم انى درست المرحلة الجامعية الاولى فى لبنان وعرفت مصر وقادة الفكر

(*) هذه محاضرة ألقيت فى الملتقى الدولى حول بناء الوحدة المغربية .

والسياسة فيها عن كثب في الاربعينات والخمسينات من هذا القرن . وهاننا أعيش في تونس كواحد من أبنائها وأدرس في الجامعة التونسية منذ 23 سنة. ولذلك فانا أمثل الوحدة العربية بالمعنى الواقعي وأنتمي الى العروبة مشرقها ومغربها على السواء . ولذلك فانا سعيد في المشاركة في هذا الملتقى . إن خبراتي الطويلة في العمل القومي (زهاء نصف قرن) جاءتني بالكثير من الافراح والعديد من الاتراح . قلت إن أهدافنا القومية تتلخص في **التحرير** و **التوحيد** و **تجديد البناء** . فكلما خطونا خطوة في تحقيق الاهداف نشعر بالفرح والسرور وكلما اخفقنا نشعر بالخيبة والمرارة .

ففي حقل التحرير اشعر بسعادة بالغة اذ أرى بلاد المغرب العربي الكبير بل البلاد العربية كلها تقريبا حققت استقلالها السياسي باستثناء فلسطين واريتريا .

فكل من فلسطين واريتريا يمثل مأساة انسانية في تاريخ تحرير الشعوب وحقها بالتمتع بتقرير المصير . وهذه من الاتراح التي تنغص حياة القومي المجاهد. فما عليه الا أن يثابر في الجهاد حتى يعيد الحق الى نصابه، كما اننا في حاجة أكيدة الى السعي المتواصل من أجل تحرير الانسان العربي داخليا من الجهل والفقر والاستبداد بعد أن تحررنا من الاستعمار الخارجي .

وليت **الاتحاد** نال من النجاح بقدر ما نال التحرير فنحن أقل نجاحا في تحقيق الاتحاد منا في تحقيق التحرير ، مع ان الاتحاد لا يمكن ان ينفصل عن التحرير بل هو ملازم له . إن الاتحاد ضرورة حياتية لضمان البقاء والازدهار للاقطار المحررة . كما أنه ضرورة لتأمين القوة التي بها نحمي الحمى ونعمل من أجل استرداد الحقوق المسلوبة إن في فلسطين أو في اريتريا .

وإنه لمن حسن الطالع أن يكون ابناء المغرب العربي الكبير قادة وشعوبا واعين مقدرين أهمية بناء وحدة المغرب العربي الكبير باسلوب مرحلي حكيم . وكل ما نرجوه وندعو اليه هو ان يسرعوا الخطى بحيث تصبح ثمار الاتحاد واضحة ماثلة أمام كل ذي عينين . نحن نرجو أن يكون الطريق الى الوحدة المغربية واضحا ومعبدا . فلا تعتوره المطبات والعثرات . وقد يكون من المفيد للباحثين والمهتمين في شؤون الوحدة المغربية ان يطلعوا على خبرات المشرق العربي في هذا الصدد ليستفيدوا من التجارب الناجحة ومن التجارب الخائبة. فقد جرت منذ الحرب العالمية الاولى أكثر من خمس عشرة محاولة نظرية وعملية في سبيل الاتحاد لم تأت أي منها بالنتيجة المرجوة.وباءت كلها بالخيبة.

فما هو السر ؟ أنا شخصيا باشرت موضوع اتحاد العراق مع سوريا والاردن منذ سنة 1949 الى سنة 1958 فوجدت الطريق مليئا بالحفر وبالعقبات . إن العواطف الجياشة من أجل تحقيق الوحدة لم تثمر . ما أكثر المتحمسين للوحدة وما أقل المفكرين المطلعين على الحقائق العاملين على ضوء المصلحة والواقع! إن أهم أسباب الاخفاق فى نظرى هو **عدم** وضوح **الهدف** وعدم **تقدير** الواقع وعدم **التحلي بالحكمة** فى سبيل تحقيق الاتحاد . **وعدم نضج الفكر العربى فى المشرق وتشتته** ، ثم المشاكل الداخلية والإعتداءات الخارجية التى وقعت على هذا البلد العربى أو ذاك .

استبشر القوميون فى المشرق العربى يوم أسست جامعة الدول العربية ربيع 1945 ، واعتبرها المتحمسون منا كقاعدة جوية للامة العربية يتم الاقلاع منها نحو الاتحاد . والمادة التاسعة من ميثاق الجامعة تنص على ان «لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق وروابط أقوى مما نص عليه هذا الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الاغراض » ولكن هذه المادة أصبحت منسية تقريبا وتعطل مفعولها بسبب ما ساد دول المشرق العربى من خلافات وما وقع على الامة العربية من اعتداءات صهيونية واستعمارية . وللحقيقة والانصاف ينبغى أن نتذكر بأن الدول العربية (المستقلة نسبيا) كانت ضعيفة وفقيرة كما ان سوريا ولبنان حققتا الجلاء الفرنسى عنهما سنة 1946 . ولنتذكر دوما أن قوة الجامعة العربية هى فى قوة أعضائها ودرجة استعداد الاعضاء لادراك خطورة مسؤولياتهم القومية وتقديم التضحيات المطلوبة . إن اتجاه دول المغرب الكبير نحو الوحدة انما هو عمل بمنطوق المادة التاسعة من الميثاق الحالى لجامعة الدول العربية . فللمغرب العربى الفضل فى احياء هذه المادة المنسية فيما اذا حقق الوحدة . وأملنا الوطيد أن يعتبر المغرب العربى من المشاكل التى جابهتنا محاولات الوحدة فى المشرق العربى فيتلافاها . وها نحن فيما يلى نشير باختصار الى اختباراتنا الشخصية فى هذا الصدد :

الحاجة الى تعريف القومية العربية :

من حق المواطن العربى مشرقيا كان أم مغربيا ان يعرف بوضوح مضمون القومية العربية . فهناك من يفهم القومية بأنها عنصرية تشمل كل من انحدر من القبائل التى خرجت من الجزيرة العربية . وهناك من يعتبر كل مسلم عربى . فالعروبة والاسلام عنده مترادفان . وهناك من يرى تناقضا بين

القومية العربية والاسلام . وهناك من يقف عند قطره وخصائصه الاقليمية فلا يفكر فى العروبة والاسلام . ولما كانت لكل قومية خصائصها ومقوماتها التى تميزها عن القوميات الاخرى فنحن نقترح ان تقوم القومية العربية على : وحدة الوطن واللغة والتاريخ والاخلاق الاصيلة والايمان بالله،فالقوميةالعربيةليست عنصرية : انه قومية مفتوحة لكل العناصر التى تنتمى اليها سواء أكانت من أصل تركى أو كردى أو فارسى أو افغانى أو بربرى الى غير ذلك . فصلاح الدين الايوبى البطل العربى المسلم الذى حرر فلسطين من ايدى الصليبيين كان كردى الاصل ولد فى بلدة تكريت فى العراق ، ثم إن تعريفنا للقومية يشمل غير المسلمين من العرب ما داموا يؤمنون بالله . هذا وإن القومية العربية تعتز بالدين الاسلامى وتعتبر عائلة كبرى من العائلات التى يتكون منها العالم الاسلامى . إن عدم الاتفاق على تعريف القومية العربية قد يوجد مشاكل وبلبلة فى السير فى طريق الوحدة ، وفى رأينا إن أبناء العروبة فى كل مكان يحسنون صنعا اذا تبنوا قول الامام ابن باديس فى حق الجزائر حين قال :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال : حاد من اصله أو قال : مات فقد كذب

ضرورة تحديد الهدف الوحدوى : ما الذى نعنيه بالوحدة العربية أو الوحدة المغربية . هناك من يرى ان الوحدة العربية قد تمت وتحققت بتأسيس الجامعة العربية : اى ان كل دولة عربية تبقى منعزلة ومستقلة عن الدول العربية الاخرى والرابط الوحيد بينها هو الجامعة العربية . وهناك من يرى ان الوحدة العربية تعنى ذوبان الكيانات العربية القائمة فى كيان واحد. أى انشاء دولة عربية واحدة ذات مركز واحد ورئيس دولة واحد . وهذا ما كان يطمح اليه المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر . وهناك رأى وسط يرى ان الوحدة التى نطمح اليها هى تكوين اتحاد تحالفى (كونفدرالى) بين الاقطار العربية وان تسير الدول العربية نحو هذا الاتحاد بخطى حثيثة .

بعد خبرتنا الطويلة فى الشؤون القومية نحن نستبعد الوحدة الاندماجية كهدف قومى إنها غير عملية وغير واقعية كما انها قد تسبب خسارة قومية عظمى باذابة المزايا المحلية القطرية للشعوب العربية وهذه تشل ثروة ثقافية عظمى باذابة المزايا المحلية القرية للشعوب العربية وهذه تشكل ثروة ثقافية ابناء الامة الواحدة . فالقطرية السائدة فى العالم العربى اليوم قد تقضى على

فكرة الامة العربية الواحدة ويحل محلها أمم كفرنسا واسبانيا وايطاليا والبرتغال . وهذا ما لا يبشر بخير ! هذا ما يريده الانعزاليون وأعداء الامة العربية ، انهم يريدون العزوف عن العروبة والاتجاه الى الاربية أو المتوسطية أو الفرعونية أو الامة السورية الخ ... اذن فلا بد من توضيح الهدف بالخروج من قوقعة القطرية ، واستبعاد الاندماجية ، والاخذ بالاتحاد التحالفى (الكنفدرالى) . إن الخطة العملية فى نظرنا هى قيام اتحاد تحالفى فى المغرب العربى الكبير ، وآخر فى وادى النيل ، وآخر فى الجزيرة العربية والخليج ، ورابع فى الهلال الخصيب تتجمع هذه التحالفات تحت خيمة جامعة الدول العربية . على أن تكون هذه مرحلة مؤقتة تليها مرحلة اتحاد تحالفى عام لكل البلاد العربية من الخليج الى المحيط . واذذاك تصبح جامعة الدول العربية « منظمة الدول العربية المتحدة » .

إن المشرق العربى لم يتخذ بعد موقفا واحدا واضحا من تعريف القومية العربية ومن تحديد الهدف الوحدوى وهذا ما نرجو ان يحققه المغرب العربى الكبير منذ بداية السير .

الواقعية والموضوعية فى درس الموقف الذى نحن فيه : من اهم أسباب فشل محاولات الوحدة فى المشرق العربى عدم الدرس الكافى للمشاكل التى تجابهنا والعقبات التى تعترضنا فى سبيل الوحدة . وها نحن فيما يلى نعدد نماذج من هذه المشاكل التى لم يحسب لها الحساب الكافى :

1) **رواسب الاستعمار :** لقد ولى الاستعمار السياسى ولكنه ترك خلفه رواسب تعرقل سيرنا نحو الوحدة والتقدم ومن هذه الرواسب ازدواجية الثقافة ، ومنها انتشار الجهل والفقر والمرض . ومنها العصبيات العنصرية والمذهبية والاقليمية والقبلية والعائلية . كل هذه تتطلب جهودا جبارة لتوعية الشعب وخلق أمة منسجمة موحدة الولاء والانتماء .

2) **اختلاف العقليات والمصالح بين حكام البلاد العربية :** فالذين بيدهم زمام الامور فى البلاد العربية ليسوا متجانسين من حيث الثقافة والتكوين . فالبعض منهم جاء الى الحكم عن طريق انقلابات عسكرية والبعض الآخر جاء عن طريق الوراثة والبعض الثالث جاء عن طريق الانتخاب ولذلك فقد نجد تباينا بين سياسة دولة عربية وأخرى فى السياسة الداخلية والخارجية الامر الذى يجعل تحقيق التوحيد شاقا وبطيئا .

3) **مبداي الزعامة والتوازن بين الدول العربية** قد يصبحان عائقا فى سبيل الاتحاد ، يوم كنا نسعى لاتحاد سوريا مع العراق اعترضت دولة عربية كبرى أو أكثر على هذا الاتحاد بدافع ان هذا الاتحاد قد يشكل قوة تنافس زعامة الدولة الكبرى ثم إنه قد يولد قوة تخل بالتوازن السياسى فى المشرق العربى . إن هذا التفكير لا مبرر له مطلقا فيما لو نضجت فكرة الامة العربية الواحدة والمصلحة الواحدة . فالزعامة فى العالم العربى لا يجوز أن يحتكرها قطر معين أو شخص خاص . فكل بلد يتفوق فى العلم والحكمة والاستعداد للخدمة قد يصبح زعيما وما يقال عن البلد يقال عن الشخص . أما التوازن السياسى فلا معنى له بين دول شقيقة . إنه قد يثار بين مجموعات دول متنافسة أو متعادية تخشى بعضها البعض الآخر .

4) **زوال الثقة بين الاشقاء احيانا** : إن قيام الانقلابات وفقدان الاستقرار فى بلد عربى قد يكون ناتجا عن تدخل دولة عربية شقيقة فى الشؤون الداخلية لدولة عربية أخرى الامر الذى يوجد شكا وريبة إن لم يوجد خصومة ومهاترة بين الاشقاء . وهذا أمر يعيق السير نحو الوحدة بكل تأكيد .

5) **الفروق فى الثروة** : إن بعض البلاد العربية قد رزقت موارد نفطية وطبيعية تزيد على احتياجاتها العادية . والبعض من البلاد العربية تشكو العوز وقلة الموارد . وفى هذه الحالة قد لا تستسيغ البلاد الغنية الاتحاد مع البلاد الفقيرة . أتذكر يوم كنت أسعى لاتحاد سوريا والعراق اعترض أحد الساسة قائلا : هل نحن فى غنى عن واردات نفطنا كى «تقدمها للسوريين ؟» إذن فاختلاف المقدرة المالية قد يكون عقبة فى سبيل الاتحاد ما دامت ثقافتنا القومية لم تكتمل بعد . إن بعض البلاد العربية أخذت تتشدد فى طلب سمة الدخول من مواطنين عرب . بينما يدخلها مواطنو بعض الدول الغربية بدون سمة . لو سارت العقيدة القومية والاسلامية حقا لفتحت الحدود بين أقطار الوطن العربى كلها لابناء العروبة والاسلام كما كان الحال فى العصور الاسلامية الزاهرة .

6) **تضارب السياسات والعقائديات** : هناك بلاد عربية أنظمة الحكم فيها يسارية وأخرى انظمتها يمينية وهناك بلاد تتوسط بين اليمين واليسار . وقادة هذه البلاد قد يحاولون عقائديات متضاربة فمن عقائدية اسلامية الى عقائدية علمانية دنيوية . ومن أساوب ديمقراطى على النمط الغربى الى سلطوية

فى الحكم على النمط الشرقى . وانتماءات هذه الحكومات دوليا تتنوع بتنوع العقائديات . فالبعض منها يتعامل مع الغرب فقط ويعتمد عليه. والآخر يتعامل مع الشرق فقط ويعتمد عليه . والقليل من يجمع بين الشرق والغرب على السواء . ومع أن الكل ينتمون الى كتلة عدم الانحياز نظريا الا أن الاكثرية هى منحازة عمليا . إن خبرتنا الواقعية اقنعتنا بان للاختلاف وللتضارب فى العقائديات أثره البالغ فى عرقلة السير فى سبيل الاتحاد .

7) **الصهيونية والاستعمار** : هما من أقوى العوامل على إعاقة السير فى سبيل الاتحاد فى المشرق العربى . فللصهيونية وللاستعمار (شرقيه وغربيه) عملاء فى بلادنا يعملون بلا كلل لايجاد المؤامرات والفتن والفرقة فى داخل كل قطر عربى وبين قطر عربى وآخر . وها هو لبنان أبرز مثل على ذلك . إن الصهيونية تعتمد فى بقائها فيما تعتمد على الخلافات والنزاعات فيما بين الدول العربية . وهذا ما صرح به آبا إيبان (وزير خارجية اسرائيل الأسبق) لمجلة (رياليته) الافرنسية فى عددها الصادر فى ديسمبر 1966 . وإن المستر جون فوستر دالس (وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق) صارحنى صيف 1954 بأن الولايات المتحدة لا تستطيع ان تؤيد اتحاد سوريا والعراق لان الكونغرس الامريكى سوف يعترض على ذلك من أجل اسرائيل . إذن فعلى العرب ان يحسبوا حساب العامل الاستعمارى والصهيونى فى كل تخطيط يعدونه لتحقيق الوحدة .

اختيار الاسلوب المناسب والطريقة الصحيحة لبلوغ الاتحاد : على نوعية الطريقة والاسلوب قد يتوقف نجاح الاتحاد أو اخفاقه وهانحن فيما يلى نذكر بعض اختباراتنا فى هذا الصدد :

1) **الطفرة ام السير المتئد ؟** هناك قوميون مستعجلون يريدون تحقيق الوحدة بقفزة واحدة . « قرار واحد من الحكومات ويتحقق الاتحاد » ! لا حاجة للقول بأن موقفا كهذا يحتاج الى خبرة فى الحياة ! يقول المثل الدارج : « فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة » . وهذا المثل فيه حكمة حياتية تصدق على نواحى الحياة كلها تقريبا . على أن السير المتئد لا يجوز أن يفسر بالتوقف عن السير وترك الامور الى الزمن . إن قصة السباق بين **الأرنب** و **السلحفاة** تدلنا على أن السلحفاة كانت جادة ونشيطة فى حركتها ولم تتوقف ولم تنم كما نام الأرنب !

2) **بالجملة ام بالقطعة ؟** هناك من يدعو الى اعلان وحدة عربية شاملة دفعة واحدة من الخليج الى المحيط . والا فلا تقوم وحدة عربية ولا يجوز لقطرين ان يتحدا فى معزل عن بقية الاقطار العربية ، كان الاستاذ الدكتور ناظم القدسى (الرئيس السورى الأسبق) يريد من الجامعة العربية أن تعلن اتحادا كهذا وهو لم يحبذ قيام اتحاد بين سوريا والعراق (فى حينه) ما لم يقم اتحاد عربى شامل لكل دول الجامعة العربية . دعانا المرحوم السيد رياض الصلح (رئيس وزراء لبنان الأسبق) الى لقاء عى الغداء فى منتزه (شتورا) للتفاهم والتقارب حول اتحاد سوريا والعراق فوجدت الدكتور القدسى متصلبا برأيه. إنه حلم جميل ولكنه غير عملي وغير واقعى كان ذلك سنة 1950 . قدم الدكتور القدسى اقتراحا بهذا المعنى الى جامعة الدول العربية فدخل فى الاضبارات . كما دخل فى الاضبارات اقتراح قدمته (يوم كنت رئيسا للوزارة العراقية) فى جانفى 1954 أدعو الدول العربية الى تطبيق المادة التاسعة من الميثاق والسير فى **طريق الاتحاد** قائلا : « تجرى مفاوضات بين الدول **التى تستطيع** و **تريد** الدخول فى الاتحاد على الاسس **التى يرغب** فى **إنشاء الاتحاد** عليها » . ففى هذا الاقتراح مرونة واسعة ومرحلية مريحة . ولكن الاخذ به كان يعنى (**عند البعض**) تحرشا بمبدأى الزعامة والتوازن بين البلاد العربية .

3) **الطريقة النازلة أم الطريقة الصاعدة لبلوغ الاتحاد ؟** هناك من يرى ان الاتحاد إنما يتحقق بقرار تصدره الحكومات أو بتشريع تشرعه وهذا يتم بدون ضياع وقت . وهناك من يرى ان حملة عسكرية كاسحة قد تحقق الاتحاد بسرعة البرق . وفى كلتا الحالتين يفرض الاتحاد على الشعوب من « أعلى » وقد اصطلحنا على هذه الطريقة بـ « الطريقة النازلة » يقابلها قيام المربين والمفكرين والساسة المؤمنين بتغذية الشعب بمبادىء الوحدة والاتحاد فتصبح هذه المبادىء مطلبا شعبيا تستجيب له الحكومات . وهذه الطريقة هى ما اصطلحنا عليها بـ « الطريقة الصاعدة » .

إن الطريقة الصاعدة هى الطريقة السائدة فى الاجواء الدمقراطية حيث تعبر الحكومات عن رغبات شعوبها وتمثل الاتجاهات السياسية التى وقع عليها اختيار الامة . أما الطريقة النازلة فهى الطريقة الدارجة فى البلاد التى لم تنضج فيها الدمقراطية بعد .

إن الطريقة الصاعدة تتطلب جهودا متواصلة مضنية من رجال الفكر والسياسة ولكنها طريقة مضمونة العواقب . أما الطريقة النازلة والتى طبقت فى الوحدة الاندماجية بين سوريا ومصر سنة 1958 فقد أدت الى الاخفاق فلم تعش الوحدة طويلا لاسباب عدة منها إن الشعب السورى لم يكن له رأى فى بدايتها كما لم يكن له رأى فى نهايتها ! ففى اختيار الطريقة لبلوغ الهدف نجد ولا شك عبرا مشرقية للوحدة المغربية .

الخلاصة : إن استعراضنا السريع للعبر المشرقية قد يشجعنا على ابداء الملاحظات التالية حول الوحدة المغربية :

1) إن السير فى سبيل بناء الوحدة المغربية هو ضرورة قومية لضمان ازدهار المغرب العربى وقوته ومنعته .

2) إن تحقيق الوحدة المغربية يزيد فى قوة الامة العربية من الخليج الى المحيط وهو مرحلة طبيعية من مراحل السير لبلوغ الاتحاد العربى الشامل للاقطار العربية جميعها .

3) إن الوحدة المقترحة للمغرب العربى هى وحدة الاتحاد التحالفى (الكنفدرالى) وليست الوحدة الاندماجية .

4) إن الطريقة الصاعدة هى الطريقة المثلى لتحقيق الاتحاد التحالفى فلا يفرض الاتحاد من « أعلى » بل التوعية والتثقيف هما الوسيلة لتحقيق الاتحاد.

5) إن تحقيق الوحدة المغربية يتطلب (الى جانب الوعى القومى الشامل والحماس) الواقعية والاستعداد التام لمجابهة المشاكل والعقبات التى تعترض السير فى سبيل الاتحاد بالفكر وبالحكمة .

6) إن تحقيق الوحدة يتطلب الجهد المستمر والانصراف الى الافعال وانجاز الحقائق والمشاريع المشتركة بين الاقطار المغربية بروح وحدوية .

7) أهمية التأكيد على العناصر والعوامل المشتركة والموحدة بين أقطار المغرب العربى والعمل على دعمها . ومكافحة العوامل المثبطة التى تشجع الانشطار والتمزيق فى داخل كل بلد مغربى وبين بلد مغربى وآخر .

8) أهمية وحدة الثقافة والعمل فى توحيد برامج اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والتربية الدينية والمدنية .

9) العناية الفائقة بالتعريب وبدرس القرآن لان العربية والاسلام : هما أقوى وشائج الوحدة المغربية وأخيرا أختم بقوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . والسلام عليكم .

د. محمد فاضل الجمالي

بعض المراجع :

- محمد فاضل الجمالي : « **الاتحاد العربي في عالم اليوم** » محاضرة القيت فى نادى الاتحاد العربى فى القاهرة سنة 1946 .
- محمد فاضل الجمالي : « **الاتحاد العربي : أمنية ومشاكل** » فصل فى كتاب « العرب أمام مصيرهم » نشره مركز الدراسات والابحاث الاجتماعية والاقتصادية الجامعة التونسية (1980) .
- محمد فاضل الجمالي : « **صفحات من الكفاح العربي في سبيل التحرير والتوحيد والتجديد** » الدار التونسية للنشر (1980) .
- محمد فاضل الجمالي : « **كارثة فلسطين والواقع العربي** » الدار التونسية للنشر .
- محمد فاضل الجمالي : « **حاجة الامة العربية اليوم الى ميثاق قومي جريدة** » جريدة الشرق الاوسط فى عددها الصادر 1984/5/20 .

قلبي لتونسيتين .. وتونس لي وحدي

شعر : الصّادق شرف

عندما سمّيتُ نفسي « فارسَ العُشاق » في شَرْخِ شبابي ..
لم أغالطْ أحدا .. لكنني ..
حينَ حسبتُ العمرَ ملكي .. كنتُ أخطأتُ صوابي !
فأنا ما كنتُ إلاّ فارسا في جيدهِ حَبْلُ الفرحْ .
جيده فاكهةُ العودةِ منْ قوسِ قُزَحْ .
يا لَقَوْسٍ بعضُ ألوانه مخزومٌ عليها حَطَبِي
ربما شجَّرني لونُه حينا بالفراشاتِ .. وهَا رَكْضُ الصّبي
اسْتَلَّ منّي تعبِي
الفراشاتُ إذا بَرْعَمَهَا ريشُ المَرَحْ
أزهرتْ أجنحة راقتْ فضائِي .. فانشرحْ
رُدَّ للفرحةِ وجهَ اللهِ مِنْ قطنِ الظلامْ
ردَّ لي فاكهةَ النجدةِ .. واستَنْسَقِ السلامْ
ردَّ لي شرعيةَ الصمت إذا انبحَ الصدى
أنا ما سميتُ نفسي — أيها الفارسُ — عشّاقَ المدَى
إنما سميتُ رأسي كرة أرضية .. عيناي فيها
كوتَا رَصْدٍ لأنفاق الضياءْ
كفكفوا ما عندكم من كبرياءْ
أيها المحتشدونَ العمرَ في زنزانة تدعَى : الفضَاءْ .

إنَّ عينِي – ثقبةَ المفتاحِ حاطتني بأقطار السماءْ
ولِذَا سميتُ فتحَ اللهِ فَحْمِي ..
ورمادَ الفحمِ بعضا من ثيابِي
وأنا سميتُ نارَ اللهِ دفئي
عندما يبردُ بركان انْقلابِي
إنها النارُ التي سَمَّيْتُمُوها لي : « عَذَابِي » خَطَأً ..
ابتكروا تسمية أخرى لها ..
فابتكارُ الأمسِ لاغٍ في حضوري بفراغي
وابتكارُ الأمسِ لاغٍ في امتلائي بغيابي ..
فاذا ما غبتُ فِعْلِي حاضرٌ فيكم بأخطاءِ صَوَابِي
ولذا سميتُ وجهَ اللهِ قنديلي .. ومحرابي .. وبيتي
حينما يعبر تيارٌ خريفيٌ على صحوِ اكتئابي
أنا ما سميتُ بابي
غيرَ وجدِ اللهِ في جود ضَبَابِي
ولذا سميتُ حزني : باقة للانبثاقْ
من ترابي
وترابي هل أسميه : الجَسَدْ ؟
حطبا سميتُهُ متقدا بي
حطبٌ لكنْ يظلَّ الدهرَ حيًا يَتَّقِدْ
لم يعدْ يفصل بينَ الصفر إلا
عندما يورقُ تَوَقِّي بينَ بيني والعدَدْ
يستديرُ الصفرُ حولي .. وأنا دائرةٌ للاشتقاقْ
دارةُ الضوءِ أنا اشتقَّ منها الرَّمْيَةَ الأولى
أنا مَنْ أنجبتْهُ الرميةُ الأولى على الماءِ

مِنَ المـــاء

إلى المـــاء

وإني ما تكررتُ ، ولكنْ كنتُ أولى ببَذْرةٍ للانعتاقْ

فالقديمُ المتجدّدْ ..

والضعيفُ المتمرّدْ ..

والوحيد المتعدّدْ ..

والعديدُ المتفرّدْ ..

والكفورُ المتعبّدْ ..

هؤلاءِ الناسِ منهم أنا قدْ كان ابتدائي ..

وأنا من هؤلاءِ

إن يكونوا وردة كنتُ الشذا

إن يكونوا شوكة كنتُ الأذى

إن يكونوا هذيانا لمساجين الهمومْ

كنتُ فيهم منفذا

إن يكونوا مطرًا .. كنْتُ الرذَا

ذَ .. ابْتلعي

يا أرض ما كان انفصالا بين صوتي وصداهْ

فالرذاذُ استافني .. كنتُ التصاقا بمداهْ

وأنا ما إن توسعتُ على ركح مياهي للتعدّدْ

كان ما كنتُ .. كمنْ يصعدُ مِنْ غوْرِ خليج لوليبيا

مِنْ محيط الضوء في الماء

على الماء

إلى الماء إلى حدّ التجدّدْ

يقف الماءُ على حدّيْ نقيضٍ للتلاشي ..
ليظلّ الضوء منسوجا هدوءا باندهاشي
أغلقتني دهشتي
كي يصعد الماءُ ولكنّ الذى يصعدُ .. يَصْعَدْ ..
مِنْ فراشي
ذلك العبدُ المُسَجّى بي على طول المدىَ
ذلك العبدُ .. ابعْدوا عني قليلا
تبصروا طيفه خلفي جيّداً
إن عبد الحبّ لا يفتأ عندي سيدا
فأنا مَنْ قيل عنّي :
(سِرْ إن اسطَعْتَ رويدا في الهواء)
ثم فوق الماء ما دامَ حذائي
لم يزلْ أضيقَ مِنْ ساقِ الرضيعْ
فمه في الشدي عيناهُ سمائي
يدُهُ في أمّهِ تَكَمّشُ في الصدرِ على طَوْقِ الرِّداءِ
عندَ كلِّ الرَّضْعِ الحبّ بِدائي
وبدائيٌّ إلى حدّ انتهائي في البدايهْ
وبدائيٌّ إلى حدّ ابتدائي في النهايهْ
وبدائيٌّ إلى حدّ اختلاطِ الأمّ بالثوبِ وثوبي بالكفَن
وبدائيٌّ إلى حدّ عِدائي للــوَطَنْ
عندما يمنعني عاشقتي من أنْ أحبّ اللهَ فيها
أنْ أرى فيها مِنَ الكوّةِ أرجاءَ سمائي
عندما يَصْفُو انتصابُ الشمس للمجهر فيها
وحدها تلتحف الشمسَ بوجهي كالتعبْ

تتَمَلَّى لانتِصَابِ الأرض للمحراثِ .. هيَّا يا سمائي
اركُميني بالسحبْ
فأنا مازلتُ في الحبِّ بِـدائيًّا .. ودائي
ثمرةٌ كالخمرِ مُـرّهْ
والمراراتُ إذا عتَّقتَهَا تصبحُ حُـرّهْ
حبّ قلبي مرّةً واحِـدَةً
وأحبّتْ شفتي السفلى مرارًا
دونَ أنْ أستلْهِـمَ التَّكْـرارَ مَـرّهْ
ربما تَحبس دقاتِ فـؤادي خلفها عاشقتي
لو أمسَكتْ – منْ بين دقاتِ فؤادي –
دقةً واحدةً تُشبهُ أخرَى!
ربما تعرشُ جسمي بينَ قضبان حديد أبَدِي
أتخلّى عندها عَنْ جسَـدِي
أطرحُـهُ من داخلِ القُضبَـان أشلاءَ .. ولا
أُبقِـي لَـهُ إلاّ يَـدِي
(إلا يَـدِي)
ها أنا أخلُقُ مِنْ خِنصَرِهَا رَأسَ امرأهْ
ومنَ البِنْصَـرِ صـدرا .. وذراعيـن ..
مِنَ الوسطى القَـوافِي والعَجُـزْ
ومِنَ السَّبَّابَـةِ البـاقي . بقيتِي ...
وبقِيتِي استوَتِ المرأةُ خلْقًا رائقـا
وَمِنَ الإبْهَامِ قَـدْ جَـدّدْتُ تكـوينـي
وها قَـدْ صَارَ ربّي بيَـدِي لي خالقـا

الصـادق شـرف

كفاح الحداد السياسي والنقابي

بقلم : محمد أنور بوسنينه

قبل الشروع في الحديث (*) عن نشاط الحداد السياسي والنقابي ، حري أن نلقي بعض الاضواء على الفترة التي عاشها الشعب التونسي أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وإثر الاحتلال الفرنسي الذي تم بمعاهدة باردو ـ 12 جمادى الثانية 1287 ـ 12 ماي 1881 ، واتفاقية المرسى ـ 2 شعبان 1300 ـ جوان 1883 ، وهذه الاتفاقية كما يذكر المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب « هي التي قضت على الجانب العظيم من الذاتية التونسية ، لان معاهدة باردو التي قبلها لا تخول للحامي السلطة الداخلية ، بل تنص في الفصل الاخير منها على زوال الاحتلال للبلاد متى استتب الامن بها وعاد اليها الهدوء والاستقرار » (1) .

ـ وإثر معاهدة باردو مباشرة كان الموقف المشرف الذي اتخذه المجاهد العربي زروق ، والمتمثل في رفضه لمبدإ الحماية جملة وتفصيلا ، وردها على وجه الممضي عليها الباي محمد الصادق ، ففرضت على الرافض الاقامة الجبرية ، لكنه تمكن في نهاية الامر من الافلات الى اسطنبول حيث استقبله خير الدين باشا ، وقدمه الى السلطان عبد الحميد الثاني ، فقربه وأكرمه ، ثم هاجر الى المدينة المنورة حيث استوطنها الى أن توفي بها في 7 ربيع الاول 1320 ـ 17 جوان 1902 .

(*) نص المحاضرة الثانية للكاتب والتي ألقيت بمناسبة خمسينية الحداد يوم الجمعة 27 ـ 12 ـ 1985 بحامة قابس .

(1) ح. ح. عبد الوهاب ـ خلاصة تاريخ تونس ـ ص 215 ـ الطبعة الخامسة ـ الدار التونسية للنشر .

ـ ونشير بادىء ذى بدء الى أن اتفاقية المرسى كانت السبب الرئيسى فى اطلاق يد المستعمر على البلاد ، باحداث الادارات والمصالح الكبرى ، وأحدثت فى نفس سنة إبرام الاتفاقية خطة الكاتب العام الفرنسى بالحكومة التونسية من أجل مراقبة شؤون البلاد الادارية ، والتنسيق فيما بينها ، وأحدثت مراقبات فى أهم جهات البلاد ، حيث استولت على السلطة من حيث التصرف والنفوذ ، كذلك تم تأسيس ادارات جديدة تعنى بشؤون الماليه والاشغال العامة ، وادارة العلوم والمعارف ، ثم ادارة الفلاحة والتجارة والاستعمار «حتى أضحت هى الموجهة لسياسة البلاد حسب مشيئة المحتل ومصالحه» (2).

ـ وتخللت الفترة ما بين الاحتلال واعلان الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) عدة تصرفات واحداث ، نشير الى البعض منها جملة لا تفصيلا ، كتقرير الجبايات من طرف ادارة المال ، والتصرف فيها بدون رقيب ، أضف الى هذا بقاء الميزانية سرا مكتوما ، لا حق للتونسى الاطلاع عليه ، وانشاء الطرق المعبدة ، والتى يرتبط جلها بأراضى المعمرين الفرنسيين مباشرة ؛ اما التعليم فكان التخطيط يرمى من ورائه الى السعى من أجل تعميم اللغة الفرنسية ، وتاريخ فرنسا وجغرافيتها ؛ غير أن الشعور الوطنى دفع البعض من المصلحين الى انشاء الخلدونية سنة 1314 ـ 1896 (3) . الى جانب انشاء المدارس الخاصة والتى عرفت بالمدارس القرآنية ، ومن أجل الحفاظ على الذاتية الوطنية وتحصينها من الذوبان . أما الجانب الفلاحى ، فقد بذل المستعمر قصارى جهده من أجل امتلاك أخصب الاراضى ، وزحزحة أصحابها وتهجيرهم منها ، وتمكين المعمرين من القروض والآلات العصرية ؛ وبحكم امتداد ادارة المستعمر ، أضحى عدد الموظفين الاجانب يفوق العشرين ألفا ، بينما تحتل نسبة التونسيين الربع تقريبا ، وبهذا كان هناك نفور بين المستعمر وأبناء البلاد الذين شعروا بالغبن والحيف والتعدي الجائر ، وأصبحت سلطة الباي اسما بلا مسمى منطبقة عليها قولة ابن رشيق :

ألقاب سلطنة فى غير مملكة   كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

---

(2) المصدر السابق ـ ص 216 .

(3) انظر مزيدا من التفصيل حول تأسيس الخلدونية المقدمة التى صدرنا بها كتاب « التعليم الاسلامى وحركة الاصلاح بجامع الزيتونة » ـ الدار التونسية للنشر ـ ص 24 ـ 25 ـ 26 ـ 27 ـ تونس 1981 .

ــ وما ان كان شهر رمضان 1327 أكتوبر 1909 ، حتى كان هجوم ايطاليا على طرابلس ، فازداد الشعور القومي تضامنا وتكاتفا ضد كل دخيل ؛ ثم وبعد فترة وجيزة كانت معركة الزلاج الشهيرة ، والتى تمت فى النهاية باعدام بعض المتظاهرين ، ونفي البعض الآخر أو سجنه فى 28 ذى القعدة 1330 ــ 11 نوفمبر 1911 . وبعد ثلاث سنوات كانت الحرب الكبرى الاولى ، فأجبر عشرات الآلاف من التونسيين على خوضها بجانب الحلفاء وقتل منهم قرابة الاثنى عشر ألفا .

ــ ولا باس أن نشير الى ثورة خليفة بن عسكر ، شوال 1333 ــ أوت1915 حيث قاوم الجيوش النظامية جنوب البلاد الى رمادة ، حتى وضعت الحرب أوزارها ، حيث تم القضاء على هذه الثورة نهائيا ، بمتابعة أصحابها ومناصريها وفى مقدمتهم محمد الدغباجي ، أصيل حامة قابس والذى أعدم رميا بالرصاص بسوقها يوم 1 مارس 1924 وسبق تنفيذ حكم الاعدام من السلطة الايطالية بطرابلس على خليفة بن عسكر ، فى جوان 1922 وقبلها قتل غدرا الثائر البشير بن سديرة سنة 1920 ، وحكم على أخيه المنتقم من القاتل الخائن بالنفي مع الاشغال الشاقة المؤبدة الى جزيرة بالمحيط الهادى «Nouvelle Calédonie» حيث توفي هناك .

ــ اذن فى خضم كل هذه الاحداث المشار اليها عجالة ، إضافة الى أحداث أخرى لا يسمح المجال الى الحديث عنها كلية ، عاش الشعب التونسي أوضاعا متقلبة وفترات عويصة صعبة لا تخدم مصالحه فى شيء ، بل كلها أرزاء عليه وأدواء ؛ وازدادت حالته سوءا على سوء نتيجة تدهور الاوضاع الاقتصادية عامة ، وأضحى التونسي لا كلمة تسمع منه ، ولا اعتبار له فى نظر المستعمر، وعم الفقر كافة الامة ، وانتشرت الامراض ، وساد الجهل وخنقت الحريات العامة ، وقيدت الصحافة بقيود مجحفة بالقانون المؤرخ فى الرابع عشر من أكتوبر 1884 ، ملحقا بقانون آخر أكثر جورا فى 2 جانفى 1904 ، وأضحت الاجتماعات العامة مهما كان هدف اجتماعها دينيا أو سياسيا لا يرخص فيها الا بعد امضاء المقيم العام الفرنسي ، وقد سبق فى التاريخ عدم السماح بتكوين الجمعيات بقانون صادر فى الخامس عشر من سبتمبر 1888 ، وما إن كان يوم 17 رمضان 1339 ــ (1920) حتى تأسس الحزب الحر الدستوري القديم برئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي،ثم كانت الحركة الاستقلالية من هذا الحزب بمؤتمر قصر هلال وعلى يد الرئيس الحبيب بورقيبة فى 2 مارس 1934 .

فى خضم كل هذه التطورات السريعة والمذهلة والتى تبعث فى الوطنى الصادق الشعور بالنقمة ووجوب التحرك والوقوف على القدمين عاش الحداد ذاك الجو المتعفن وما ان تخرج من جامع الزيتونة بشهادة التطويع سنة 1920 ، حتى انضم مباشرة الى حركة الحزب القديم عله يقوم ببعض الواجب نحو أمته ؛ وظل مباشرا لعمله باخلاص وثبات ، وساهم مساهمة فعالة فى تركيز شعبه والعمل على تعميمها فى كامل البلاد . يقول أحمد الدرعى عن هذا النشاط :

« صادف شباب الحداد هذا العصر ، أى عصر تأسيس الحزب فى طفولته الاولى باسم الوطنية التونسية التى استهلت فى فجر شبابه ، وخروج الشيخ الثعالبى من السجن يحمل علم الوطنية ، والمطالبة باصلاحات للبلاد ونظام جديد ، فلازمه الحداد واشتغل معه فى العمل اشتغالا مفيدا ، وكان الشيخ الثعالبى يقدره حق قدره ويعرف له اخلاصه ومزاياه فى التفكير وقوة الحجة وفى التحرير والتحبير ؛ وان غالب اشتغال الفقيد بتحرير المقالات الضافية عن حالة البلاد التونسية ، ولم يكن أحد من التونسيين فى قوته فى تحرير مقال ، فهو رجل المبدإ الذى يكتب باخلاص ليفيد ، ولم يكن يكتب شيئا لملء الفراغ من الصحف ، ويظهر ذلك من مقالاته جميعا ، فلا تجد فيها حرفا واحدا زائدا ولم يكن يستعمل شيئا من العبارات المتداولة على ألسنة الكتاب ، فهو أبغض الناس للقوالب ؛ واستمر يعمل هذا العمل ، ويدعو للدستور دعاية كابلغ ما يكون ، فلم يكن يقصد الاجتماعات العامة ، ولا إقناع العموم فى خطب تلقى عليهم فحسب ، بل كان يعتمد بالاخص على تكوين أفراد يرى فيهم الاخلاص ، والاستعداد الحسن واستقامة التفكير ، فيخالطهم ويعطيهم أهم وقته وفى شؤونهم الخاصة أيضا .

وهذه الخلطة تستدعى مشاركتهم فى سيرتهم فالحداد يؤاكلهم ، وصاحبهم الى التنزه ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنائزهم ، واذا اختلف الزوجان أصلح بينهما ، وهو فى ذلك لا يرى غضاضة ، ولا يحس بثمن لوقته الذى يصرفه على جماعة من عموم الشعب . وهؤلاء النفر قد ربى فيهم الحداد شيئين : حب الوطن وحب الحرية ، ودفعهم اليهما ، فاسسوا بتأثيره نادى المركاض ، ونادى سيدى منصور للحزب الحر الدستورى اللذين كانا أول النوادى بتونس ، واللذين داما مع الحزب الحر الدستورى ما دام الحداد بهذا الحزب ، فلما انفصل الحداد عنه للاسباب التى ستلي فى اتفاق الأحزاب ضد

جامعة عموم العملة التونسية ، كان الاحتجاج يحرر بنـادى المـركاض الذى ينسحب فعلا عند انسحاب الحداد » (4) .

ـ من خلال هذه الاشارة الموجزة نستشف مدى طاقة الحـداد فى العمـل المباشر ، وفى الاندفاع التلقائى من أجل تحرير البلاد بالوسائل السياسية ، وبالانضمام الى حزب توقع منه العطاء الكثير ، والبذل بدون عوض ؛ وفى كل هذا كان الحداد يجاهد بالفكر والقلم ، ويواجه المستعمـر بالادلـة المنطقيـة المقنعة للاشارة الى صلفه وجبروته وتعديه وتسلطه ، وظل فى ساحة المعركة بسلاحه الفكري المتين ، واخلاصه المتناهى ، يدافـع عـن حقـوق الشعـب السليبة ؛ وما أن كان تاريخ 20 ديسمبر 1920 . حيث تـم اصـدار قانـون اكتساب الجنسية الفرنسية بالبلاد التونسية ، والذى أدرج بالرائد الرسمى عدد (105) 22 جمادى الاولى 1342 . وقـد حـرر ببـاريس بأمـر رئيس الجمهـوريـة Millerand (5) وبامضـاء وزيـر الخـارجيـة الفـرنسـى Poincaré (6) ، ووزير العدلية موريس كوبرا ، ووزير الحرب والجرايات ماجينو ، حتى ثارت ثائرة التونسيين ، وأعلنـوا معارضتهم لهـذا القـانون الجائر ، وتناولته الصحافة الوطنية بالـرد المفحـم ، واعتبـار التجنس ردة وخروجا عن الاسلام ؛ وكان فى طليعة المقاومين لهذه الظاهرة الخطيرة الطاهر الحداد بمقاله الشهير « التجنيس نكث للعهد » الذى نشر بجريدة « الأمة » العدد (50) 4 ربيع الثانى 1342 وشهر فيه بالتصرف الفـرنسـى الأرعـن ، واعتبر أن فتح باب التجنيس للتونسيين أقل ما فيه أن فرنسا تتمنى أن يصير التونسيون فى يوم ما فرنسيين ، وقد حلل باسهاب مقاصد المستعمر

(4) أحمد الدرعي ـ كتاب « حياة الطاهر الحداد » ـ ص 84 ـ 85 ـ الدار العربية للكتاب ـ الطبعة الثالثة 1977 ـ تقديم وتحقيق كاتب المقال .

(5) Alexandre Millerand ـ ولد بباريس سنة 1859 وتوفي سنة 1943 ـ تولى خطة وزيـر الحـرب فيمـا بين سنتى 1914 ـ 1915 . ثـم رئيسـا للجمهورية من سنة 1920 الى سنة 1924 ـ ابتعد عن النشاط السياسى إثر اشتداد صف المعارضة ضده .

(6) Raymond Poincaré محام ورجل سياسة (1860 ـ 1934) ـ وتولى رئاسة المجلس النيابى سنة 1912 ـ وكذلك من سنة 1922 الى سنة 1924 ـ ومن سنة 1926 الى سنة 1929 ـ وقد تولى رئاسة الجمهورية من سنـة 1913 الى سنة 1920 .

ونواياه المبيتة ، وارادته فرض ذوبان الامة في بوتقته ، ويدرك الحداد أن البلاد كسيرة الجانب ، لا حول لها ولا قوة ، ولكن اليقظة آتية لا ريب في ذلك ولا شك :

« ليس للتونسيين هيئة تشريعية تحميهم من طوارق كالتجنيس ، وليس لهم ــ كما قلنا ــ قانون أساسي يحتجون به لانفسهم غير العهود الفرنسوية التي أمضى عليها الباي ، وغير الحق العام بين الامم . وفرنسا هي التي تشرع اليوم وحدها عمليا للبلاد التونسية ، وهي التي تستحضر اليوم أوامر التجنيس ، وليس لنا اليوم أمام هذه الاخطار ما ندافع به غير ألسنتنا وصحفنا واحساسنا العام ، وهي لا تكفي وحدها لرد هذا التيار الاستعماري لذلك أرى أنهم سيمرون على هذه الضجة غير مكترثين ، وهكذا شأنهم في كل ما يهمنا.

إن الكلمة الجامعة التي نختم بها مقالنا هي : « إن سياسة الاحتلال المادية والمجردة من استعمال العقل ، لئن كانت تسلب المادة منا ، وتحاول فصلنا حتى عن خصائصنا الادبية والتاريخية فانها أيقظت بقدر ذلك عواطفنا وشعورنا القومي يقظة ستظهر الايام قيمتها بعد حين » (7) .

ــ وهكذا أدرك الحداد ببصيرته وأن مثل هذا السم الزعاف ، هو عامل تحريك للسواكن وايقاظ الهمم ، وانه سوف ينبلج الصبح قريبا ، وتنكشف الحقائق عارية لا لبس فيها ولا خداع ؛ وتمسكت الامة بدينها الحنيف وقوميتها العربية الاصيلة ، وضربت عرض الحائط بهذا القانون وأضرابه ، وحافظت على مقوماتها ووجودها وحقها الثابت المكتسب في الحياة والوجود ، كل ذلك بمقاومة مستميتة ، وانتفاضات ثورية دموية رائدة ، جعلت المستعمر في نهاية المطاف يتراجع ويغلق الملف نهائيا بلا عودة ، وقد سانده وزكى مواقفه بعض رجال الدين ؛ يقول الدرعي في هذا السياق :

---

(7) أدراج هذا المقال أيضا بكتاب « الشعب التونسي والتجنس » من ص 77 الى ص 85 ــ نشر الجيلاني الفلاح 1924 ــ مع الملاحظ وان الصحف التي تبنت مقاومة ظاهرة التجنس هي التالية :

ــ الصواب ــ الامة ــ المبشر ــ الزهرة ــ الوزير ــ العصر الجديد ــ النديم ــ لسان الشعب ــ مرشد الامة ــ النهضة ــ المنير .

« استفتى الشعب الشيوخ فى مسألة التجنيس فلم يفتوا ، واستفتتهم الحكومة فى امكان توبة المتجنس فافتوها بما شاءت ، ولكن الشعب قد أفتى لنفسه فى دينه ، وضرب بكلام مصابيح الظلام عرض الحائط ، واعتمد على ضميره الذى يوحي اليه انه لا يمكن أن يكون رجل من غير المسلمين على المسلمين » (8) .

إن الفترة التى عاشها الحداد فيما بين سنة 1920 وسنة 1924 فترة مد وجزر ، بين المستعمر وأذنابه ، وبين الشعب الأبي المعتز بأصالته ودينه وقوميته ، فترة كان فيها القوم يأملون كثيرا فى المستقبل ولكن أى مستقبل إن لم تتحد العزائم وتتناصر الهمم ضد المستعمر ووسائله القمعية الجائرة ؛ وقد أشار الحداد الى هذا التفكير الاولي فى الوسائل المؤدية الى الخلاص بقوله:

« ... يعتقد جمهور الشعب أن آلامه ، والسقوط الملم به متأت له بالأصالة من السلطة التى تحكمه ، فالزارع يشكو الغبن فى صابته وحاله ، ويعلق ذلك بالحكومة ، والصانع يشكو كساد صنعته ... والتاجر تحل ديونه ... والعمال المغبونون فى أجورهم والبطالون ... كلهم يعتقدون أن انهزامهم فى الحياة من الحكومة ... إن الحكومات فى قدرتها أن تبذل مجهودا فى ذلك السبيل ، متى كانت صادقة النية فى ضميرها ، ومخلصة لشعبها ، ولكن أى هذه الحكومات التى جاءت من نفسها مختارة الى هذا الصدق والاخلاص ، دون أن تكون مدفوعة بتيار قوي من الشعب الذى تكاثف ضمن جمعيات حية تختلف طرقها فى العمل ، وتتخذ غايتها لارغام الحكومة على اعطاء نصيبها من الجهد لتحسين مؤسسات الشعب وحمايتها ، والرضوخ نهائيا لسلطانه الشرعى الذى ما احتيج للحكومات الا لتخدمه » (9) .

---

(8) أحمد الدرعي ـ حياة الطاهر الحداد ـ ص 43 ـ ولزيادة التبسط حول قضية التجنيس ، انظر أيضا مقالنا بمجلة « الفكر » بعنوان : « الشعب التونسى ومسألة التجنيس فى الثلث الاول من القرن العشرين » ـ العدد 8 ـ ماى 1981 .
ونشر نفس المقال بجريدة « العمل » بتاريخ 12 ماى 1981 .

(9) العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية ـ ص 31 ـ و 32 ـ الطبعة الاولى 1927 ـ مطبعة العرب ونس .

ويمضي الحداد في تحليله الاجتماعي والسياسي ليشير الى أن كل هـذه المواقف هي التي دفعت البعض في النهاية الى تأسيس الحزب الحر الدستوري التـونسي :

« ولقد نمت العاطفة السياسية في التونسيين ، وكثرت الشكوى من نظام الحكومة وأعمالها ، بما ادى الى تشكيل حزب سياسي هو الحزب الحـر اليـوم الذي أسس في 17 رمضان 1339 الموافق سنة 1920 ، والذي أعلن بالشكوى من سوء النظام الحاضر ، وطلب من الحكومة الفرنسية تغيير شكل حكـومة البلاد التونسية طبق برنامج سطر فيه مطالبه التسعة المعروفة وعرضها على رجال فرنسا بواسطة وفود تكررت مرات ، لافهام حقيقة الحـالة الموجـودة بالبلاد التونسية ، وأحقية المطالب التي قدمت لهم حتى يعطوها عـن رضى منهم ... ويواصل الحداد قوله :

« وليس قصدنا أن نتبع هذه الحركة السياسية بالتفصيل ، وانما ذكرناها بهذا الاجمال من جهة أنها كانت أول دور انتقل اليه الشعب بعد سكوته ونومه الطويل ، ففي هذه الأثناء بدأ الشعب يشعر أن الحركة السياسية وحدها لا تكفي لافهام الحكومة ما يطلبه الشعب منها ، بل يلزم أن ينضاف اليها نهضة العلم والاقتصاد ، وتأسيس المؤسسات لذلك بصدق وعـزيمة ، وتلـك هي القوة التي تفهمها الدول الوصية اليوم على الشعوب المستضعفة ... » (10) .

لقد عاش الحداد أوضاع الحزب القديم في الفترة المشار اليها آنفا ، وظـل وفيا على العهد ، مندمجا في صلب أعماله وأشغاله ، حتى كانت حادثة تنازل الباي محمد الناصر عن العرش تضامنا مع المطالب الوطنية ثم تراجعه عن هذا التنازل ، واستقرار أمر الحماية بتهجير الشيخ الثعالبي جبـرا لا اختيـارا ويقول الدرعي عن هذه الحادثة :

« ولما سار (الشيخ الثعالبي) الى المرفا ليمتطي الباخرة ذهـب الحـداد لوداعه وقبله الشيخ قائلا : « إني أعتمد عليك في تونس » (11) . ولم يقلها لسواه فكان أحباب الحداد يقولون له على وجه المزاح : « إنك خليفة الشيـخ فينـا » (12) .

---

(10) المصدر السابق _ ص 32 _ 33 .

(11) دامت هجرة الشيخ الثعالبي من سنة 1923 الى سنة 1939 حيث سافر الى ايطاليا فاليونان فتركيا فالشرق الى أن رجع الى تونس .

(12) حياة الطاهر الحداد للدرعي _ ص 87 .

ويزيد الدرعي تفصيلا لجانب كفاح الحداد السياسى بقوله :

« وصدع الحداد من ذلك التاريخ بالعمل جهرة ، ينفذ البرنامج الجديد ما امكن ، فقد أم نوادى الحزب ، وقد مر بنا أنه أسس من أنصاره الشخصيين ـ ناديين ـ يخطب فى الجماهير التى كانت تجتمع أسبوعيا ، ولا يتخلف عن مخالطة أنشطهم وأحزمهم فى الدعاية وارغبهم فى الوطنية ينير لهم السبيل ، ويكشف لهم عن طرائق التفكير لا يالو جهدا فى نصحهم وتنويرهم ، وكان مجيؤه اليهم عيدا يلتفون حوله ليلتقطوا الدرر المتساقطة من فيه ، ولم يكن أبدا ليفعل ذلك مع أعيان الدستوريين وأثراهم وأوجههم وانما كان ميزانه فيهم الاخلاص ، والاستعداد للعمل ، فقد يقصد العملة منهم ، وأصحاب المصانع والاجراء مهما كانت اشتغالاتهم ومهما كانت ثروتهم ، والمشاع عند المتزعمين فى ذلك الوقت أن الشعب ساقط منخذل منحل ، لا يمكن الاعتماد عليه ، وأن « الزعماء » فى هذه البلاد لا يمكنهم أن يعملوا شيئا كبيرا لفقدان المعاضدة الشعبية التى هى أصل للاعمال القومية فى حركات ترمى الى التحرير او المطالبة .

وقد كان الحداد يناقضهم ويقول : إن أحدا من المتزعمين لم يشتغل باصلاح الشعب ، فأنا أعرف هذا الشعب فى صفاته الحميدة وصفاته الذميمة ، واذا كان له وصف ذميم فهو انقياده بسهولة للمتزعمين واخلاصه لهم بسرعة ، وإقدامه على تأييدهم لما يظهرونه له من حسن القول ، وهم كثيرا ما يخدعونه بقول خلب ومنطق حار ... ويقول : إنما الشعب قد أيد المتزعمين عليه فى كل أدوارهم تقريبا ، ولبى دعوتهم كلما طالبوه باسم الوطن لشىء فقد طالبوه بتأسيس النوادى للحزب وطالبوه ببذل المال ، ودفعوه الى التظاهر والاحتجاج، وغلق المحال التجارية ، فاسس وبذل ، وتظاهر واحتج وأغلق ، ولم يتردد بل دافع عليهم المرار العديدة بالنفس ، فقد يصطدم الشعب فى المظاهرات بقوة البوليس أو الجند فلا يبالى ، وإنما الذين كانوا دون المرتبة اللائقة بهم إنما هم المتزعمون ، فقد كانوا دائما لا يخاطبون الشعب الا بمعسول القول ولين الكلام ، ولم يشتغلوا قط باصلاحه ، فلن تجد من بينهم من سعى لاصلاح حالته الاجتماعية ، أو من قاوم فيه الذهنية العتيقة ، أو من باشره بالحقيقة كما هى ، وينتقد عليهم بالاخص سعيهم لانفسهم ، واتخاذهم السياسة والمصلحة العامة سبيلا لجلب الاموال الى أنفسهم ويتمثل بقول المعري :

إنما هذه المذاهب أسباب جلب الدنيا الى الرؤساء (13)

ـ وبعد ذكر هذه الاسباب التى حدت بالدرعي والحداد الى العمل خارج اللجنة التنفيذية ، فلاحظ بأنهما اختارا هذه السبيل قصد العمل الوطنى المنتج يقول الدرعي :

« ... فكان الحداد يأتى يوميا تقريبا لنادى الحزب ، لا ليقابل أعضاء اللجنة التنفيذية الذين كانوا لا يأتون الى دار الحزب . وانما ليقابل السيد القليبى ، ويشاركه فى تحرير المقالات فى الصحف التى يجب أن تكون وطنية خالصة ، ويدافع فيها عن المظلوم والمهضوم ، ويشارك فى حل المشاكل اليومية التى تعرض للحزب ، وتحرير موقف الحزب ازاء ما يحدث من الحوادث ، ومقابلة نواب الشعب الذين كانوا يؤمون النادى دائما رغما عن عدم وجود الشيخ الثعالبى ، فلم يكونوا ليجدوا مكانه قفرا ، بل يجدون شبيبة تهتم بهم كما كان الشيخ ، وكما اعتادوا أن يجدوا بالمحل من النشاط . ولم يكن للحداد فى ذلك صفة رسمية ، كما لم يكن ينتفع بشيء مادى من هذا العمل اليومى ، وكان يزيد على هذا العمل فيشتغل بأصدقائه الذين اصطفاهم لفكرته بالنوادى التى افتتحت فى المدينة للدعاية للحزب يخطب فيها ويبث المبادىء التى يراها صالحة لانقاذ الوطن من الهوة التى وقع فيها ... » .

ـ وبعد ملاحظات الدرعي حول اعتقاد الحداد بأن الحياة السياسية الحرة هى التى تمكن الشعب من البناء الاجتماعى ، يشير الى أن الحداد قد رجع فى نهاية الامر عن هذا الرأى : « ... وعلم من بعد أنه لا سبيل الى بقاء المطالبة الشديدة الى الأبد دون أن تجاب ، وعلم ان لا سبيل أيضا الى التحصيل على حقوق سياسية دون أن يتأهل لها الشعب ، واعتقد أن العمل الاجتماعى يجب أن يسبق العمل السياسى ، وادرك الحكمة الكامنة فى الحديث : « كيفما تكونوا يول عليكم » . التى تنادى بأن النظام السياسى يجب أن يتطابق مع حالة الشعب ، اذ أنه لا سبيل الى تغيير نظام الحكم فى البلاد الا بتغيير الحياة الاجتماعية » (14) .

(يتبع)

محمد أنور بوسنينه

---

(13) المصدر السابق ـ ص 87 ـ 89 .

(14) المصدر السابق ـ ص 89 ـ 90 ـ 91 .

عِنْدَ مُفْتَرَقِ الطُّرُق

قصة : حياة بن الشيخ

بزغ الفجر ثانيـة . الا من قوة فى الكون تثنى النهـار عـن الشروق ؟ حافية القدمين اندفع نحو النافذة ككـل يوم ، عقـلى يلهث وانفى يـرتطم بالزجاج متشمما آثار قوافل النهار المقتحم غرفتى .

الهلال هناك يحتل ركنـه المعتاد فى الافق هزيل ، رقيق ، بسمة حب لم يكتمل امامه يجثو وجودى فكرة مفككة معلقة فوق جدران الصمت والنسيان .

الهـلال يحتضر ومرحلة ما بعد الجنون التـى نعيشهـا تستعد لليقظـة تختطف من فمى آخر نفس للحلم .

الدفء الراحل والصقيع الآتى ويوم آخر سيلوكنا عنوة ثم يلقـى بنا فوق الاسفلت .

أخيرا توارى الهلال وفى زقزقة عصفور هارب من زوابع الشتاء لهفة جذلى تهمس ، عندما يكتمل البدر ستشدو عرائس الامـل ويبتسم ربيع الحياة ..

أعود ارتمى فوق الفراش ثانية ، خلفـى النافذة والشارع الصامـت رغـم الضجيج وفحيـح السيارات والاشجار النائمة على حـافة الرصيف تختـزل الافراح والاتراح فى هدوء مريب ، أعد أورقها المتساقطة مع هبـوب الرِيـاح

وانتظر . ماذا ؟ لا يهم . سؤال فى سلة الاسئلة العربية بلا جواب ، البدر نافر والرياح غاضبة لكنى اقسمت على الانتظار .

اسبوع فى الفراش بلا عمل ، بلا زحام حافلة ، ولا تفاهة مسؤول يقطر أنفه غطرسة وسخفا ولا تعرف أصابعه كيف تمسك القلم .

اسبوع والقرارات تتلاطم فى رأسى . استقالة أم استسلام ، أم ثورة على ما كان وفرض ما يجب أن يكون ؟؟ ذاب الليل والنهار فى أودية الملح وانسلخ الوعى على مذابح الواقع لكن القرار ما زال عند مفترق الطرق ينتظر وثبة القمر ..

« لست أدرى الام تنتظرين لم لا ترفعين قضية ؟ عائلة ظالمة تغتصب حقك فهل تصمتين ؟ » .

« لن يضيع الحق ولن يرتع الظلم الى الابد » .

« من حيث جئت لا ثراء ولا عائلة كبيرة . الفقر ختم الجميع بطابعه . عشش وبيوت من طين « غرفة واحدة للجميع » الاب فوق الدكة الخشبية والام والاطفال فوق الحصير أرضا . وعندما يكح أبى معلنا عن رغبته فى المضاجعة تنهض أمى مرتبكة لتلتحق به . كنت أراقبهما خلسة وأنا صغيرة والى أن كبرت لم يتغير النظام . أبى يعمل فى الحقول المجاورة وأمى معه ، لا حمار ولا جاموسة . عرفنا الجوع لكننا لم نعرف النزاع . تأكدت الآن ان الاب الثرى ان مات لا يترك خلفه غير الصراع والحقد .

« لا أحد يرضى بنصيبه ويسبح للقناعة . كل يحاول الاعتداء والاغتصاب لكن الحق سيرفع رايته فى النهاية » .

« اذن متى يتكلم الصامتون ؟ » .

« عندما يتزحزح القدر » .

« وان غض الطرف عنك » .

« سأجبره على التحرك وارغمه على التحول » .

« يا لنا من شعب اتكالى مصيره سجين القوى المجهولة الصدف والقدر والأبالسة والملائكة ، سفسطة غيبية دينية وسياسية ! يا لهذا الشعب كم يحتمل ! »

« من أجل ذلك تعثر الحاضر وتأرجح المستقبل » .
« السلبية التهمت الحاضر والاتكالية خنقت المستقبل ومع ذلك لا بد من التحرك ...

نعم وذاك الضابط الذى يجنننى ببروده هل يتحرك يوما » .

هدى نائمة ملتفة بالاغطية الصوفية حتى الرأس تتقلب فى قلق لكن سرير راوية فارغ القى بجثة صاحبته فى قبر ضائع فى مقبرة ما زالت تعيش على الشرف والتقاليد وخرقة ملوثة تقدم ليلة العرس كشاهد اثبات للفضيلة والبراءة ، القى بحمله واستسلم للفوضى التى فرضتها عليه هدى وقد القت فوقه بثيابها وبعض الاغطية والوسائد . فى السابعة والعشرين من عمرها لم تتزوج بعد تجلس القرفصاء ليلا قبالتى نتجرع سموم السنين معا ونحصى الاحلام وهدى تضحك ساخرة منا « اى وكر للعجائز وقعت فيه . لن تستقيم حالكما الا بانتفاضة على الخضوع والاستسلام . صدقانى ، الثورة هى الحل الوحيد لتحقيق حلم التغيير » .

وبالامس صرخت هدى وهى تضرب المائدة بقبضتها وانا اذكر مأساة راوية بتحسر : « لا للضعف . لا للانهيار والاستسلام للمقادير . لا للرجعية والتخلف . فلنحب بعقل ولنفكر فى حدود المصلحة . نريد حرية القرار وتقرير المصير . الموت لدعاة التبعية والانهزامية » .

من أجل تقرير المصير أنا هنا . برجوازية فقيرة طريدة بغير مطاردة ترجنى زلازل الحياة واتقاسم شقة متواضعة مع طالبة متحررة طيشا اكثر مما هى متحررة وعيا وموظفة مطرودة باعت العمر من أجل غريب ثرى يسبح فى مستنقع البترودولار . لكن للجنون بقية .

أنا وهدى خطان متوازيان لا يلتقيان لكنهما يسيران فى نفس الاتجاه . سر لا مبالاتها انها تمارس الحب ولا تعشق . وخورى نابع من هوسى بالعشق دون ممارسة الحب . كلانا يعلن الرفض على الرواسب والعقد ويحلم بالثورة وتحطيم الحواجز وكلانا قد اعتقل فى قماقم المعاد والمعتاد وما زال يرقب ساعة الانعتاق .

« ليكن الغد قبلتنا .. لا بد من الوصول » .
« ألم نصل بعد الى الهاوية ؟ » .

« لن نقع فى ظلام الهاوية . الحاضر فـى يد الطغاة افتك منا ، لكن الغد لا بد ان يكون لنا » .

« وهل انتهت سلسلـة الطغـاة . من قال : إن الغد لا يحمل بين أجنحته طاغية أو جبارا مستبدا » .

« لن يجد الظهور المنحنية ولا الافواه الخرساء . لن يعاد عصر المهزلـة . لا . لا . » .

وما يعذبنـى حقا ان كـل يوم يمر أتأكد أكثـر فأكثر انى أعيش عصـر المهزلة ، أواكب انتفاضة الامـل وقد ارتفعت فـى حلقى كلمـة ، لا ، علامة ملطخة بوحل التقاعس والهزيمة تسد الابواب فى وجهى ولا تفتحها .

« ماذا تحبين فى هذا الضابط المتخـاذل ؟ هل ستقضين الدهر تحلمين بغريب ربما لم يكتشف بعد انك موجودة فوق سطح الارض ؟ » .

« وما الذى يجعلك تحكمين عليه بالتخاذل ؟ » .

« لم يتقدم خطوة . لم يفعل شيئا وكل ما فى الجو يدفعه الى التحرك » .

قدرى أيضـا يأبـى التحرك . صخرة ضخمة أود زحزحتها دون جـدوى . تنسلخ يداى ، تتهدم قواى وهى باقية تسد الطريق تحطم ما سعيت اليه وما لم اسع اليه . وبسمته الخجولة تلاحقنى دوما لكنه لا يتكلم . عينان عسليتان فيهما وعود وغموض وعهد حتما سيجمعنـا يوما لكن صوته أخرس كليالـى الرغبة الميتة .

« الم تتساءلى ما يفعل فـى يومه ؟ ماذا يريد وماذا ينتظر من الحياة ؟ » .

« ما يفعله الجميع . يأكل ويشرب وينام ويرقب الاحداث » .

« لم لا نصنع الاحداث يا ترى لم ؟ » .

« نحن شعب لا يصنع الاحداث بل يتركها تمتطيه عن طيب خاطر . هدى كفى عن الكلام أنت تعذبيننى » .

« مواجهة الواقع تعذبك دوما ، لكن يجب ان تعترفـى انه لا يستحق هذا التقديس . نواياه غامضة وموقفه جبان » .

« ها نحن لا نتحادث الا لنتصـــادم » .

« نقاش حر يا آنستى ، أم تريدين أن نكون كالنواب ان اجتمعوا يتبادلون الثناء ويتقاذفون الورود متجاهلين الواقع والحقائق . النقاش الحر غذاء الروح والجسد فليعلم الجميع بذلك » .

ما أقذر هذا الواقع وما أفظعه ! وما ارذل المواجهة ان كانت النتيجة هى : صفر أسود فى قعره مقصلة .

ما يفعل هو وما نفعل نحن . ما يريد من الحياة وما نريد نحن ؟ يا فتاتى الطائشة كلنا ندور فى حلبة هذا الصفر الاسود تائهين بلا دور ولا وضع تترصدنا المقصلة وتكشيرة فم الجلاد » .

لا أحاول النهوض . ولا أنام . والفجر بزغ رغما كما توارى الهلال فى وجل تاركا مشاعرى فى قبضة الاعاصير ثكلى . فراش راوية الفارغ جرح ينز فى داخلى لا يندمل .

« ستقوم القيامة عما قريب وعلينا بدخول المعمعة بقلب جامد وعزيمة حديدية » .

تقول راوية وهى تلقى بنفسها فوق الكرسى بضعف شديد وقد ازداد جسمها ضمورا وهزالا وصرخ وجهها من الشحوب ..

« قيامتى قامت منذ زمن بعيد . ارتفع من ارتفع وسقط من سقط وراح يوم الحشر يجر اذيال الطغيان وكنت الضحية الوحيدة فى المعركة » .

« اصبحت لنا فى كل يوم قيامة ألا تعلمين ؟ » .

« كل الذى أعرفه انى طردت ظلما من عملى . لست الوحيدة من ساهم فى الاضراب ، لكنى الوحيدة التى طردت » .

« حديثة العهد بالوظيفة من أجل ذلك اجتاحتك العواصف الآن عليك بالبحث عن عمل » .

« كأن الدرب معبد وكل من يود يستطيع السير فيه » .

هدى صارخة بغضب « لن اتسول رغيفى بل سأنتزعه بالقوة » .

« استسلمنا للظلم . تركناه يستبد الى أن تضخم عوده ومـا عدنا قادرين على المجابهـــة » .

« المقاومة هي الحل الايجابي لكل أزمة » .

« ما أصعب الحلول الايجابية في زمن العسر والتطاحن » .

الحياة تبدو مشوهة الوجه لئيمة الخواطر . تضحك مع الضاحكين وتبكى مع الباكين واظافرها المذببة مشهرة فـي وجوه الضاحكين والباكين تخدش الجلد وتلعق الدم بنهم داعر . وراوية راحت ولن تعود . عذراء حـالمة تحلـم بالحب والمستقبل لكن المستقبل اغتاله الذهب الاسود الذى ضل طريقه في سوق الخنـــاء .

« ضعيفة وسخيفة كانت . تنتحر من أجل ثرى سافل . يا للغباء » .

« صدمتان فـي نفس الوقت . الطرد وفقدان الامـل فـي من تحب . انها الفظاعة بعينها » .

« الفظاعة هي الاستسلام للصدمة . انـه الجبـن والخـوف من الاعتـراف بالهزيمة . لم يكن يبحث عن زوجة . كان يريد انثـى يفترسها ، قدمت لـه نفسها فلم يرفض » .

« أنت لا قلب لك يا هـــدى » .

« العواطف أكبر عقبة فـي سبيل التحرر والانطلاق . الحب مات مذ رحل قيس وجميل بثينة . لو حاولنا التفكير في المصلحة فقط لتجنبنا الكثير من الصدمات » .

« ممارسة الجنس من اجل مصلحة نوع من البغاء » .

« بغاء مفيد ولا عاطفة مدمرة » .

« ألم يقل لك أحد : إنك مبتذلة ؟ » .

« وأنت ألم يقل لك أحد : إنك متخلفة عن عصرك بقرن كامل . حقا انت تستحقين ان تكوني موضوع دراسة طبية فـي المؤتمر الطبي القادم . لكنهم سيحللون ويتناقشون في حالتك واعراضها ثم سيكتشفون في النهاية انـك معقدة . معقدة بأحرف حمراء ساطعة الضوء ولا شيء آخر » .

هذه البنت شعلة لا تنطفىء من الغرور واللامبالاة . أود أحيانا لو امسكها من شعرها واضرب برأسها عرض الحائط . وقد ابتسمت مرة ساخرة وهى تتفحصنى بامعان ..

« أنت حتما أصبت بعقدة الساسة . يتغنون بما لا يستطيعون فعله أو لا يفكرون فيه وينسون ما يمكن فعله ، وتلك سياسة السفسطة الدائمة . تقدمية الاقوال ورجعية الافعال » .

« ألم نتفق على اننا شعب اتكالى يعيش على السفسطة » .

تفتح هدى عينيها . تفركهما بعنف . تستوى جالسة فوق السرير هاتفة بصوت حائر بين المرح والكسل :

ـ صباح الخير .. استيقظت باكرا كالعادة مستعدة لمعركة الحب والقمر . أنت صورة حية لزمن الضياع والقلق .

ـ السنا جيل الضياع والقلق والهزيمة أيضا .

ـ الاحياء ليسوا فى حاجة الى النواح بل الى وثبة تهدد أمن الجبابرة فاستفيقى ولا تستقبلى النهار بالتحسر ربما ، لكن أين القوة الدافعة التى تبعث الروح فى الاحياء ؟ وذاك الضابط اللامبالى يحطمنى . أحلامى تركض فوق البدلة العسرية ومصيرى يحترق فوق الانجم الرابضة فوق كتفيه لكن السنة اللهب لا تصل اليه . تتطاير فى الهواء ، ترمى جمراتها فوق سحنة المدينة الحرباء ذات الالف لون وقلب وهدف . يواصل الصنم الجميل مسيرته الصامتة لا يزعزعه ارتفاع اسعار ولا انخفاض مرتبات ولا صفاقة مسؤول متكبر ، أو آهة فتاة عاشقة تركت البيت والاهل وجاءت تحلم بالحياة، بيوم البعث الذى سيضع فوق رأسها اكليل الحب والحرية . خوفى من ان يكون الحب قد ولى زمنه كالخير والسعادة والعدل والمساواة .

يومنا تسول وشحاذة وغدنا ..؟ أوف ، فليبحث الغد عن نفسه فى مدافن الارتجال ان وجد الى ذلك سبيلا ..

ـ لا تفكرى كثيرا . سيكون لك صوتى فى الانتخابات القادمة وان لم افعل فيمكنك الاعتمار على التزوير . المهم لا تبتئسى .

تعرف كيف ترغمنى على الضحك ، كما تعرف كيف تدقنى كالمسمار الصدىء فوق خشب الحقيقة فكيف المواجهة واين الفرار ؟.

تتحدث بلا انقطاع . محطة ارسال لا تتوقف . تصب لي احداث البارحة دفعة واحدة . عادت متأخرة ليلا وانا نائمة لذا يجب أن تلحق الدقائق وتضعني على خط آخر الانباء . رأت رجلا بدينا يدخل شقة الجارة القاطنة في الطابق الاول . زوجها يعمل ليلا في شركة النقل . الزوج غائب والعشيق حاضر وتدعي التحفظ والشرف ولا تفتأ تعرض عند الجارات بسيرة المغامرات الثلاث اللاتي يقطن شقة واحدة وقد ازدادت نار النميمة اشتعالا بعد انتحار راوية . راجت حكايات وخرافات عنها وعنا تحملناها بصمت واستهانة . مجتمع عهر ونميمة ماذا تنتظرين منه ؟ كريم رضوان ألقيَ عليه القبض . التهمة اختلاس . كأنه الوحيد الذي اختلس اللص المغفل يقع واللص الماهر تفتح له أبواب التسامح على مصاريعها .

وما تزال تتحدث ، تقدم الاحداث بعشوائية عربية منتقاة وأنا أغوص في جوف الفراش أتابع لحظة انهيار القيم والكواليس حبلى بالمؤامرات والدسائس . كل ما في يقفز عاليا صارخا ثائرا الا جسمي فهو خامل ، منكسر الرغبة فقد المفتاح والمزلاج وانغلق الى الابد .

لكن هل من حتمية تبرر وجود التعاسة ؟.

اقفز من الفراش دافعة جسمي قبل أن يرغمني على العودة الى الخلف . جسمي عبء ثقيل يهد كاهلي ويجب ان اتخلص من هذا العبء قبل ان اقضي نحبـــي .

القهوة ساخنة لكن سرعان ما تبرد قبل ان تصل الى المعدة . البرد في كل مكان . برد وقحط وخذلان . نظراتي تتسكع في سقف الغرفة الممسوخ من الطلاء . شقة صغيرة في عمارة قديمة . غرف ضيقة ، جدران بالية وايجار فاجر . ايجار كلما تذكرته وتذكرت معه القصاب وبائع الخبز والخضر شدني الاحتياج من عنقي ليدس بأنفي في التراب وان استطعت الهروب من معتقل الرجعية والاستغلال الذي يمثله بيننا فلن استطيع الهروب من زنازين العمل . هناك الدينار الذي يحيي ويميت .

ها هي هدى تمسكني في حالة تلبس شاردة للمرة الالف :

ـ ماذا قال لك السقف ؟ سينخفض سعر الرغيف أم هو باق على حاله ؟.

ـ ارتفع سعر الرغيف أم انخفض حسبنا اننا انخفضنا واستوينا في اسفل قاع الحضيض .

ـ ترى هل عرفت الجوع يوما ؟ برجوازية من عائلة عريقة حتما لم تسمع بشظف العيش ولا بالعمل فى الحقول ربما ، لكنى عرفت التعاسة على جميع ألوانها ، الضيم والاعتداء واغتصاب الحق .

المزرعة الكبيرة ، والبيت العتيق العامر بالاعمام والخدم ، والحرب الاهلية القائمة من اجل الارث واحتكار النفوذ . معركة الاناث والذكور وسمك القرش الذى يبتلع كل ما بطريقه .. ضعى السكين بقلبى فالماضى ينز صديدا وجرحه لا يندمل .

ـ كنا نجلس ارضا انا واخوتى الصغار ، تضع أمى امامنا الخبز البائت مع حبات الزيتون بينما تقدم لابى الخبز الساخن الذى هيأته له فى «الطابون» مع لبن الماعز ، لكن أبى يرفض دوما حركة الامتياز هذه فيضع بين أيدينا ما عنده لنقتسمه بالتساوى ساعتها يبتسم راضيا رغم تذمر امى وزجرها ..

ـ ما الذى يجعلك تتذكرين ذلك ؟.

ـ أيام الفقر لا تنسى اتذكرها دوما عندما اشرب القهوة الساخنة التى لم أذقها قبلا وعندما اشبع بعد اكلة شهية ولو انى لم اشعر قط بالشبع الحقيقى اذ كلما احسست انى سأصل الى منطقة الشبع جاء من يهددنا بالجوع لذا أود لو أخرج مخالبى كالقطة الشرسة وأغرسها فى وجه من يحاول انتزاع رغيفى .

وقد انتزعت حياتى منى ولم أفعل شيئا ولم اتحرك كأنى أصبت بعدوى ذاك الضابط المتخاذل وكم تمنيت لو القيت بنفسى عليه لاضع أصابعى بعينيه . اجبره على المجابهة او العمى الابدى . لكنى اضعف من أن أفعل . اريد وأريد وأتعذب بصمت . انفجر ضاحكة وانا استعيد كلام راوية : « ترى ما نحن فيه من عذاب هل كان بمشيئة الله ؟ وبقدرته وتسهيله أيضا هكذا قيل والله اعلم » تصفق هدى متسائلة :

ـ ألا تقولين ما الذى يضحكك ؟ يا لهذا اليوم المشهود .

وصوت راوية سمر بذاكرتى لا يبارحها : يحلو للعربى الجلوس أمام براد الشاى متباهيا بكسله : سيكون لنا غدا كذا وكذا ان شاء الله ولا يمد يدا . ستستقيم الحال عاجلا وآجلا بمشيئة الله وهو مشلول فى مكانه لا يتنحنح ، وان شاءت الصدف وفعل شيئا مبتورا او ارتكب اثما فيمكن تغطية ذلك

بكلمة : كان ذاك بأمر الله ، بينما الغرب يخترع ويقتحم الفضاء بلا مشيئة ولا قدر فبامر من هذا ؟ من يجيب على هذا السؤال قبل ان أجن ؟ » .

ــ بوران ، الذ ما فيك قهوتك واقبح ما فيك استقامتك .

تقول هدى ذلك وهى تحدجنى بنظرة ثاقبة . نعم ، فى زمن الوصولية امست الاستقامة اثما والعهر من أهم بنود النجاح . دستور القوادين وقطاع الطريق يقول : تخلص من جميع الرواسب الاخلاقية . دع الكبرياء جانبا اخفض الرأس . اركع تحت قدمي المسؤول الاول والثانى . والمدير ونائبه ، صفق للاخبار المزيفة . أسرق فى حدود القانون مختفيا تحت مظلة ما ، النجاح هناك فى الانتظار . هكذا تزدهر الحياة فى ظل المافيا القومية والدولية .

ــ عدت الى الحلم الشارد اذن النهاية معروفة . سيمر الدهر والمنافقون يزدادون نفاقا ، والاثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرا والحالمون فى غيهم لا يستفيقون .

ــ اسمعى ، لا بد من التخلص من سرير راوية كلما نظرت اليه اصابنى الغثيان .

ــ فلنتركه لمن بعدها ، ستأتى حتما ثالثة لتشاركنا الشقة وتقاسمنا الايجار .

ــ هل ننسى ما حدث ؟ هل ننسى ؟ .

ــ نسينا مجزرة صبرا وشاتيلا وتعودنا الانحناء للامبريالية كما قبلنا جنون حكام طهران فلم لا ننسى انتحار راية ؟.

لكنك لم تنسي أيام الفقر ، وأنا هل أنسى الحلم الذى يراودنى كل ليلة ؟ ربما نسيت لو عرفت كيف اكسر اغلالى واحتوى مصيرى بقبضتى . لكن كيف ؟ .

وبالامس تغير الحلم . تغير أخيرا فعسى القدر يتحامل على نفسه ويتزحزح . اشهر وانا سجينة مقبرة مظلمة ، لا بصيص نور فيها ولا ضوء قمر الا القبور الصامتة المستسلمة للموت الابدى . اعدو بين القبور البيضاء اصرخ ولا من يجيب غير السكون الخاشع وهو واقف خلف الاسوار ينهل من نبع التقاعس ولا يتحرك . توقف كقدرى عند مفترق الطرق لا يزوم حراكا

أمر به . انظر اليه مستغيثة . اهتف به . لا يجيب . ابكي . امزق شعري . امزق ثيابي . لا يتحرك . وتد مسمر في الرمال . تهب الرياح . تزمجر العواصف . تهوى الخيمة على من فيها لكن الوتد متماسك في الرمل . أظافري تقتلع لحمي المحموم والجوع والحرمان وأشباح الظلم تلاحقني تحاول أن تقبرني عنوة . لكن حلم الامس يصب رغما اكسير الامل في صدري بعد طول معاناة . كانت المقبرة تسطع نورا تضيئها آلاف الانجم الساطعة في السماء الصافية تلقى فوق كتفيه باشعاعها الواعد تطرز اجنحة من ضياء للبدلة العسكرية التي اودعت فيها أماني المثيرة والعسيرة . نظراته تتوغل في شعاب جسمي النازف . تطوى المسافات بيننا وتخترق الحواجز فجأة مد يده . توقف جسدي عن الارتعاش . توقف النزيف . عادت الحياة تنبض : اقرب ، ومصيري يصرخ لاعنا سني البطش والعدوان. تستقر يده فوق جسدي . تتحسس جراحه ، يمسح الدم بكفه البيضاء . يجذبني نحوه ببطء وما زال لا يتحرك ولا يتقدم . لكن اعصار البعث كان قد هب في المقبرة . لفظت القبور من فيها . مزق الاموات أكفانهم وهربوا من الحفر الضيقة التي ضمت هياكلهم دهرا . سطعت الانجم منتظرة اكتمال البدر ولم يبق أمام الحياة الموعودة الا مسيرة أيام . وما زال يبتسم بوجل وغموض لكنه يبتسم .

اندفع نحو المطبخ هاربة من شيء ومن لا شيء . تلاحقني الاشباح حتى المطبخ . أشرب كوب ماء بارد . النار في كل مكان وأنا وسط اللهيب جنية مسعورة وسط جمع من الابالسة تلهث وجهتها الموت والضياع والجنون راوية اغتالها الحب أم الدولار ؟ براميل البترول فقاقيع من الهزيمة تلطخ جباهنا بوشم العهر والمهانة . أغسل أكواب القهوة . أضعها في مكانها في الخزانة الصغيرة التي اشتريتها أنا . هدى لا تهتم بالخزائن ولا بتنظيف الشقة ولا حتى بتعليق ثيابها فوق شماعة . انهرها فتضحك ساخرة : يكفي ان الساسة العرب كل واحد يحاول ان يلقى بثيابه المتسخة فوق شماعة الاخر حتى لا يواجه الواقع ويعترف باخطائه .

أنا افكر لكني لا أحيا . يداي تعملان لكن الخمول يلفني . الحياة مرت بي على عجل ولم تتوقف . هدى تقول ، حسبنا أننا نعيش رغم أنف الجبابرة . غبية ، نعم نحن نعيش لكن مع جملة الحمير والقطط والكلاب الضالة . نمتاز عليها بالتعاسة وتمتاز علينا بخلو البال .

(يتبع)

حياة بن الشيخ

الشّرفات زاخرة بالعيُون

شعر: الحبيب الهمامي

أهرب منْ فـرَح اليأس
أدخُلُ في امرأةٍ صدئتْ
وأحاوِلُ موْتا
يُحـرِّرُني منْ رمادي

* * *

لا بُدّ منْ عاشقٍ
لأرى الليل أينَ ينامُ ؟
ولا بُدّ منْ عُمْرٍ آخر
لأقُولَ المدينَة
لا بُدّ أنْ أتجمَّعَ فيَّ
لاقرأ هذي الشوارعْ
أُسَمي متَاهاتِها لذةً .. لذةً
وأهدي دَمي لحِجارَاتِها قَطرةً .. قَطْرةً
وأسمِّي الصبايا بأسمائهن :
فهذي غزال السؤال
وهذي جنون المياه
وتلك عراء البهاءْ

.. إذَنْ ليس صعبا عليك الدخول
وما أسهل الانتحار على العتباتْ !
منازل بيضاء
والشرفات الصغيرة زرقاءُ
زاخرة بالعيون التي لا تُرَى
وتَرَى
لَيْتَنِي أستطيعُ المَسيرَ عَلَى أرْجُلِ القَلْبِ
كَي أتَقَرَّى الحضارَاتِ
بدْءا من الزمنِ الحجري ،
إلى الزمن الفوضوي
وعليسة الآن تخرج لي
مِنْ رَمَادِ العصور
تَخِيطُ دَمِي وتَرقَعُ مَائِي
أحبّكِ ، قلتُ لهَا ، فاحتَوَانِي بهَائِي
لماذَا تفرِّينَ ؟
والارض ضيّقة بعد عينيك
حَطَّتْ زَخَارِفَهَا فِي الهَبَاءِ
وقَالَتْ : كأنَّكَ لاَ تَفْهَمُ السِّرَّ
تَمْشِي قَتِيلا
وَتَبْحَثُ فِي مُدُنِ الحلْمِ عَنْ جَسَدٍ
يُصْلِحُ المَاءَ فيك
لماذَا تَمُوتُ ، وَمَوْتُكَ مُنْتَحِرٌ ؟
يَا مَلاكِيَ
يا ملكَ الأبجديّةِ

يا آخرَ الشعراء

* * *

أيها العاشقون ، الأزقةُ في آخر الليل
لا تتفتح إلا لكم ،
فادخلُوها على أملِ الموْتِ عِشْقا .
أظُنّ الحدائقَ جنّاتِ عدن

* * *

القطاراتُ
والحافلاتُ
ومترو الخفيف
ولي موعدٌ عاجلٌ
وسأرْكَبُ أجْنحتِي

* * *

... تونسُ تَنْهَضُ مِنْ نَوْمِها باكرا
وأنَا لَمْ أنَمْ ليلتِي
نمتُ في امرأة .

* * *

أيها المتسولُ
متهمٌ أنتَ بالهذَيانْ .
سَاعِي البريد عَلى رأسِهِ الشمسُ
لا يطرقُ البابَ
لكنّهُ يطرقُ القلبَ
المقاهِي معبّدةٌ ببقايا السّجائرِ
يَا أيُّهَا النّادلُ البدويُ
ترَى أيْنَ ألْقِي بقَايَايَ؟

الحبيب الهمامي

كلمات منثورة

بقلم: ألبشير المجدوب

واخجلي من يدي اذ تصافحني الأيدي في الريف فاذا هي ، وأنا الكهل الأشيب ، يد صبي أو غلام دقة ولطافة .. هشاشة ونعومة ، تصغر في يد المسلم وتضيع حتى لا تكاد تشد عليها الاصابع !

***

المرأة لا تتحدث كسائر الناس ، وخاصة في بلدنا ، وانما هي تشخص حديثها وتمثله تمثيلا ، تجاوبا كليا مع المعنى واتحادا بالموقف والحال ، لا تني تشفع كلامها بيديها ومحياها كله ، برفع الحاجب أو الحاجبين تارة ، وهز الرأس ومط الشفاه ، والتفنن في طبقة الصوت صعودا ونزولا ، أو توشحه بابتسامة ، وقد تحد النظر فجأة اشعاعا صارما ، وتسبل جفونها حينا آخر .. سجوا لطيفا رائقا في شبه غفوة كما لو أخذتها سنة عابرة ... تعابير عدة على هامش اللفظ جزء منه لا يتجزأ ، حلية له ودلالة .. تجربة نابضة حية .. فرصة من فرص الحياة تعيشها بجميع جوارحها ، وتلتذها بكامل كيانها .

***

لحظات ممتازة نستوعب فيها الكلام أشرف الكلام ادراكا مباشرا كأنه الحدس النير ، فاذا الفكر يلج المعنى يسرى فيه نفاذا في نشوة السابح الغواص يشق الماء ينساب فيه انسيابا ، واذا اللفظ قشر ينفتق ويتهافت توا من تلقاء نفسه ، لا يشعر به تضاؤلا وامحاء ، حتى كأن لا وجود له ولا ضرورة اليه ، قد استقل المعنى بذاته ينصب في القلب رأسا ولا دليل ولا وسيط ، ولا عائق ولا قيد ، حرية مطلقة ومحض اقتدار .

***

ما كنا نتحرق اليه من تراث وقيم ، ونتشبث به جهدنا نخوة واعتزازا رغم العسف ، عسف الاجنبي الدخيل وقهره وجبروته

وتعاليه وازدرائه أصبح أبناؤنا أشد ما يكونون زهدا فيه ، واعراضا عنه ، واستخفافا به ، شأن الوريث البطر أو السفيه الاخرق ينتشي بالهدم والفساد ، يرى لذته وتمام فتوته في الاثرة والرفض والنكران .

⁂

نظرة منك يا صديقي الى زوجتك وأطفالك الصغار في غرفة مرضك الاخير .. لمحة يأس وأسى ، وعزة واباء اذ أحسست الموت خيانة وفرارا.. تنصلا من الواجب وخذلانا حتى هممت لحظة،وهيهات! وقد رفعت رأسك وتنفست الصعداء ، أن تزيح شبح الموت بيدك ، وتتحدى الفناء !

⁂

الحب . على ما فيه من ألم وشقاء ، نعمة وبركة .. وقاء من الشهوة النهوم واللذة العمياء .

الحب . بمعناه الاوسع ، ضمان « للنوع » لولاه لفني الناس شبقا وغلمة وتناحرا من أجل الجنس .

الحب صنو الحضارة لولاه لما كان الانسان .

⁂

لا شيء أبغض وأسوأ اثرا من هذا التلوث النفسي والتلطخ المعنوي الذي نعانيه في المدن الكبيرة من جراء اتصالنا المباشر واحتكاكنا المتصل بالجم الكثير الكثير من الناس في الشارع ، في الحافلات ، في المحلات العمومية حتى يكاد يختنق الفرد المسكين ضيقا وغثيانا .. تبرما وانزعاجا من أخيه الانسان .

⁂

كارثة « تشر نبيل » . هل من دليل أبلغ على أن الطاقة النووية أشد وأعظم من أن يسيطر عليها الانسان !؟ كيف ، وهي تفترض الكمال ولا تغتفر الخطأ مطلقا ! فالخطأ الواحد ، وان ظن طفيفا هينا ، يتضاعف ويتضخم ويتوالد بسرعة جنونية حتى يعم باشعاعه الارض ، فيفترس الخلق ، ويقطع النسل ، ويسمم الحياة .

البشير المجدوب

تهنئة وتحية الى مجلة «الفكر»

بقلم: علي أمقران
(الجزائر)

لتونس الخضراء في وجدان الجزائر وأبناء الجزائر مكانة عميقة الجذور، متغلغلة الاواصر الى البدايات الاساسية لقيام الفكر والثقافة في شمال افريقيا.

فكل جيل ناشىء في الجزائر تدغدغ تونس أحلامه بما يتركه له الجيل السابق من آثار ومآثر وذكريات من تونس وعن تونس خاصة في العهود المتأخرة.

ولا أبعد النجعة، بل أقتصر على ما وعته الذاكرة، واكتب الآن من الذاكرة فقط.

إذ نشأنا في جبال جرجرة العتيدة، ونحن نسمع عن تونس، ورجال تونس، وعلماء تونس، ومعاهد تونس، وفي مقدمتها الزيتونة أو الجامع الاعظم.

نسمع عن تونس من أجدادنا، وآبائنا، وإخواننا، وجيراننا، وبالتالي من زوار كل هؤلاء من أصدقائهم وزملائهم بتونس.

نشأنا ونحن نرى طلبة الجزائر بتونس وهم يحملون بحب واكبار دفاترهم وكتبهم التي عادوا بها من تونس ويختالون بها، كما يحملون جرائد ومجلات تونس: الزهرة، والنهضة، والصريح، والاسبوع، والارادة، والمجلة الزيتونية، والعمل، والصباح، والبلاغ، والعالم الادبي، والثريا، والمباحث، والندوة، والفكر ...

نشأنا ونحن معجبون برجال الفكر، والثقافة، والتعليم، بتونس لما كنا نسمع عنهم، أو نقرأ لهم، مثل الاساتذة: عثمان الكعاك، وزين العابدين السنوسي، ومحمد الحليوي، ومحمد أبو القاسم كرو، ومحمود المسعدي، ومحمد مزالي، وأستاذي العزيز المرحوم محمد الصادق بسيس .. وغيرهم كثيرون وكثيرون جدا.

ومثل هؤلاء الاساتذة الكرام ، جماعة العلماء الاعلام : آل ابن عاشور ، وآل النيفر ، وآل ابن محمود ، وآل ابن الخوجه ، والشيخ محمد بن نيه ، ومحمد غميض ، ومنهم الكثير من مشايخنا ، وكلهم لا يذكرون إلا بالخير والتقدير والاعجاب .

ولا يمكن أن أنسى أبا القاسم الشابي مثلا الا أنه كان معروفا مشهورا . فلتونس الفكر ، ولتونس التعليم ، ولتونس الثقافة ، أثر بارز فى الجزائر .

وقد رصد فى الآونة الاخيرة الدكتور محمد صالح الجابرى العلاقاتالثقافية الجزائرية ــ التونسية فى دراسات رائعة ، نفض بها الغبار الذى ران على هذه العلاقات فى خضم الاحداث ، وجمع شتات ما بعثرته ظروف الاحتلال ، وحروب التحرير والاستقلال .

ومن خلال هذه الدراسات ــ وغيرها ــ تطالعنا دائما ، فى مقدمة المصادر والمراجع الهامة المعتمدة : « مجلة الفكر » التى كانت منذ أن رأت النور فى أكتوبر سنة 1955 م. سجلا فكريا حافلا لكل ما حدث فى تونس والجزائر ، وراصدا واعيا لكل التيارات الفكرية والثقافية التى برزت فى هذه المنطقة أو عبرت بها . وواكبت أحداثها ، ولا سيما أحداث الجزائر التحريرية .

فالاستاذ محمد مزالى ، المفكر ، والمثقف الرائد ، عرف ــ وصحبه الكرام ــ كيف يجعل من « **مجلة الفكر** » منبرا متفتحا ، حيا واعيا لكل التيارات الفكرية وهى تتبارى وتتنافس بكل موضوعية ، ودون حساسية أو خروج عن الاهداف السامية التى وضعتها المجلة دستورا ومنهجا لمسيرتها أو وهو فى نظرى :

1) نفض الغبار عن الصالح من التراث الوطنى وتمثله ، وتوظيفه فيما يفيد.

2) ابراز الكفاءات الناشئة الواعية فكانت : « **مجلة الفكر** » ، مدرسة قائمة بذاتها فى المغرب العربى ، كمجلة « الرسالة » لاحمد حسن الزيات فى مصر ، و « مجلة الشهاب » لعبد الحميد ابن باديس فى الجزائر .

3) التفتح على الفكر الاجنبى المفيد لتطعيم فكر وثقافة المغرب العربى ، بلسان عربى مبين .

وبذلك كانت قادرة على المساهمة بجدية وفعالية فى اثراء وتعزيز النهضة الفكرية والثقافية العربية الاسلامية الشاملة .

وبهذا فـ « **مجلة الفكر** » بمنهجيتها ومسيرتها المميزة وصلابتها فى تحقيق أهدافها السامية ، تعد بحق احدى معالم وركائز النهضة الفكرية والثقافية فى المغرب العربى ، وفى العالم العربى والاسلامى ، بل فى الفكر العالمى الانسانى.

وصلتي الفكرية بهذه المجلة الرائدة ترجع الى ذلك العدد الخاص الذيوشحته باللون الاحمر ليوحي بظرف معين ويسجله لانها خصت به الثورة الجزائرية وكان سعيرها يضطرم ، وكان ذلك العدد من الاسلحة التي كان لها الاثر في ذلك السعير المضطرم ، وهو عمل ليس بالهين اذا ما أدركنا : أن الانسان الجزائري آنذاك كان يحمل حياته بين يديه دائما ، وفي كل لحظة يمكن أن تنتزع منه هذه الحياة ! وكان كل شيء حوله يتداعى ، ولم يبق له الا الصبر والصمود ، وقبول التحدي والامل ، والايمان الراسخ بالله والوطن وقضيته العادلة ـ ولا يزال ـ .

في هذا الوقت يصل هذا العدد الى قسنطينة فاقرؤه مع الذين قرؤوه ، ويكون دفعة قوية لذلك الامل الذي يعمر قلوبنا ، ويدغدغ أحلامنا .

ثم لا آلو جهدا ـ بعد ذلك ـ في أن أقتفي كل عدد قدرت على الوصول اليه ، وهي الآن أخذت ركنا بارزا في مكتبتي الصغيرة ، وأنا بها معتز فخور.

ولقد زاد اعتزازي بها اثر موقف أصيل كان لاهلها الكرام معي ، ذلك أني كلفت باعداد كلمة عن رسائل الامير عبد القادر ، فتتبعتها هنا وهناك . ومن هذه المجلة عرفت أن المرحوم الشيخ الفاضل ابن عاشور نشر فيها رسالتين للامير عبد القادر ، فكاتبته الا أني علمت ببالغ الحزن والاسى ، وبعد أن وضعت الكتاب في البريد ، علمت أن الشيخ لن يقرأه أبدا ، لان الله اختاره لجواره فرحمه الله ورضي عنه .

فكاتبت ادارة المجلة ، وكم كانت فرحتي عظيمة ، واعتزازي بالغا مداه ، عندما تسلمت بعد أيام فقط ، العدد الذي نشرت فيه الرسالتان ، وبداخله رسالة رقيقة جدا وبخط اليد ، اهتزت لها نفسي اعترافا بالجميل .

موقف نبيل يذكر لاهل المجلة الكرام ، وننوه به بكل فخر واعتزاز .

فتحية لـ « **مجلة الفكر** » الرائدة سامية الاهداف في عيد ميلادها الثلاثين ، وتحية لأهلها الكرام . ومزيدا من العطاء الثر والعمل الجدي المثمر ، والمواقف النبيلة .

والله وحده القادر على الاثابة والجزاء الحسن ! وقد فعل .

علي امقران السحنوني
(الجزائر)

وَرَقاتٌ مُهْمَلةٌ من كتاب "المتشائل"

شعر: كمال قداوين

★ **ورقة للشعراء :**

وحْدَهُ والكلماتْ
ومساء غارقٌ في صَخَبِ الذِّكرَى
رَمَادِ الحُزْنِ ، حُلْمِ القُبُرَاتْ
وَحْدَهُ يَهْذِي
وَعَيْنَاهُ ارْتِجَاجٌ لِصَدَى الأفكارِ
شَتَّى الرَّغَبَاتْ ! ..
ما الذى يَحْصِدُهُ الشاعرُ هذا اليومَ
مِنْ شَرْنَقَةِ الوَجْدِ ؟
وَمَا يَرْجُوهُ مِنْ ثَرْثَرَةِ الصَمْتِ
وَمِنْ فَوْضَى اللُّغَاتْ !؟ ..

★ **ورقة للانتظار :**

تَقُولُ الفَوَاجِعُ لي : قَعْ خَارِجَ
المُنْتَهَى
خَلْفَ دائِرَةِ المُسْتَحِيلْ ، .
وَعَمِّدْ لَظَاهَا بِمَاءِ التَّوَحُّدِ
وَالانْتِظَارِ الطَّوِيلْ !
وَلاَ تَسْأَلِ الشَّمْسَ
عَمَّا عَرَاهَا مِنَ الإِنْتِحَارِ الضبابي
ولاَ تَسْأَلِ النَّهْرَ عَنْ صَمْتِهِ
ولا تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْ بَيْتِهِ
عَسَى البَحْرُ يَفْتَحُ أَمْوَاجَهُ :
فَرْسَخا فَرْسَخا ...
عَسَى الضَوْء يَلْقى النَّدَى بُكْرَة
يَتَمَلَّكُهُ : بَرْزَخا بَرْزَخا ...
فَذَا اللَّيْلُ مُسْتَنْقَعٌ لِلدَّخِيلْ

★ **ورقة للفرحة المقبلة :**

أَشْتَهِي أَنْ أُقِيمَ صَلاَتِي
عَلَى قَدَمَيْك
أَشْتَهِي أَنْ أكُونَ بِحَجْمِ
هَدِيرَ دَمِي

بحجم انصياعي لمملكة البوح
مملكة الشدو بين يديك
إنني الآن مشتعل بهواك
فاسمعي شهقة البرق في داخلي
واركبي صهوة الأجنحة !
وارقبي كبريائي
فإن دمي مولع :
باقتناص شذا الفرحة المقبلة
مولع بالوداعة
فوق الغصون الأليفة ...
على جسد المقصلة !
دمي يخرج الآن من وجعي
فرحا داخلا في صميم الهلاك
دم غجري تسلقني الآن
يسقط في الارتباك .
يدحرجني باتجاه الضنى ..
فتنهض من جثتي سنبلة !
فأي المواعيد تنتظرين : حقول
التوجس ، بارقة الشهب ...
أم زمن الصحو ..
أم مسرحا للغبار ؟ ...
فآوي إليك
وأعبر واجهة الأسئلة !

★ ورقة للمساء الحزين :
طعم هذا المساء كزنبقة
فقدت بهجة الفرحة المورقة
طعم هذا المساء استوى ركبه
خطوة خطوة !
واستوى ظله موجة موجة
وغفا هودجا
تتصعلك فيه دروب الغجر
ويستنفر الحلم الأزلي
ويمرق كالطيف
والفرح العابر
من جثة الليل
يمضي إلى السدف المغلقة .

★ ورقة لمملكة العشق :
تلفت مملكة العشق
ونامت في صداها
أتراها قد غفت مثلما يغفو
على الجمر سواها
أم تراها
اختنقت مما عراها
إذن هي مسكونة بالقذى
ومحملة بالرحيل
ومشتاقة للرقاد الجميل
إذن هي منذورة لسوانا من

الخَلْقِ .. مَنْذُورَةٌ للذي
بِانْتِصَارِ النَّهَارِ فَدَاهَا ! ..

★ ورقة للكتابة :

كُلُّ مَا قَدْ يَجِيءْ
يَنْتَهِي للكِتَابَةْ
كُلُّ مَا قَدْ يَجِيءْ
يَنْحَنِي لِشَذَا الكَلِمَاتْ
يُعَانِقُ وَهْمَ الرُّؤَى
مُثْقَلا بِالكَآبَةْ
وَيَمْضِي يَدُقُّ عَلَى غَابَةٍ إِثْرَ غَابَةْ
وَيَبْقَى مَدَى البَوْحِ مُنْسَكِبًا
فِي نُخَاعِ المَسَافَاتِ
فِي مَرْمَرِ القَاعِ
مُحْتَرِقا فِي عَوِيلِ عَذَابِهْ !
وَيَمْضِي
كَأَنَّ الَّذِي قَدْ رَأَى مَا رَأَى
كَأَنَّ الَّذِي كَانَ :
قَدْ كَانَ طَيْفَ سَحَابَةْ ! ..

★ حالات او هوامش :

يَحْدُثُ أَحْيَانَا
أَنْ أَقْبَعَ خَلْفَ حُصُونِ الدَّهْشَهْ
يَحْدُثُ أَحْيَانَا
أَنْ أَتَزَحْلَقَ مَكْشُوفَ الرَّأْسِ
عَلَى مُدُنِ الأسفلْتِ
وَفِي قَبْوِ العَتَمَاتِ المَنْسِيَّةْ
يَتَشَقَّقُ صَدْرِي
عَنْ دنيا أَطْيَافٍ نَارِيَةْ
تَحْفِرُ فِي الأَرْضِ الظَّمْأَى
فِي جَوْفِ الذَّاتِ
يَحْدُثُ أَحْيَانَا
أَنْ أَنْسَى قَافِيَةً تَتَعَثَّرُ فِي أَبْيَاتِي
أَنْ أَدْهَسَ ظِلِّي
أَنْ أَتَلَمَّظَ مَاءَ البَحْرِ
وَأَنْ أَلْعَنَ ذَاكَ الوَجْهَ الوَاقِفَ فِي مِرْآتِي
أَنْ يَسْتَرْخِيَ بَعْضِي لِلرِّيحِ ..
وَأَنْ أَتَدَحْرَجَ مِنْ دَائِرَةِ الذَّاتِ

★ ورقة لزمن الحلم :

لكَ أَنْ تَرْقُصَ مِثْلَ الدِّيكِ وَحْدَكْ !
لكَ أَنْ تَهْطِلَ بِالصَّحْوِ
وَبِالبَرْقِ الجَمِيلِ
لك أن تَنْدَسَ في حَقْلٍ مِنَ الأَنْغَامِ
أَنْ تَرْسُمَ بِالأَصْبَاغِ فِي

إيقاعِ وجهِكَ
لكَ أنْ تعرُجَ للحُلْمِ طويلا
لكَ أنْ تحتمِلَ الذعرَ الوراثي
لكَ أنْ تفتحَ بابا للمنافي
لكَ أنْ ترحَلَ في قافلةِ الغادين
والآتينَ من بوّابةِ العهدِ الخُرافي
إلى العصرِ النَّباتي
ولكَ الحاضرُ والآتي
وهذا الواطنُ الوالهُ يُزجيكَ
مواعيدَ اللقاءاتِ الجديدةْ
فانهمِرْ واركُضْ صهيلا في
المتاهاتِ
ولا تذهَبْ معَ السَّيْلِ وحيدا
واغتنِمْ صحْوَ القصيدةْ ! ..

★ ورقة للماساة :

يا أيُّها الحُلْمُ المُسافِرُ في دَمي
سَلْني عنِ النَّزْفِ الذي بجَنَاحُ
أوردَتي
وبرزَخُ تحتَ ذاكرةِ الصِّراعِ
سَلْني عنِ الصَّحْوِ المُدجَّجِ بالضَّنى
سَلْني علَى(!)وجَلِ المَراعي ..
إني المرايا (!) تهشمت وجناتها
رسْمُ التَّفجعِ في ذراعي
عصْفٌ هنالكَ لا يُحدُّ
مَدى يُفيقُ بِلا اتِّساعِ
ظِلي تجاوزَني فأجنِحَتي ترِفُّ
رُؤى تغيضُ
رُؤى تُتابِعُ ظلَّها ..
وأصابعٌ تتناءى
صُوَرٌ تُثَرْثِرُ في يَراعي ..
يا أيُّها الحُلْمُ المُسافِرُ في دَمي
هلاّ انتهَيْتَ إلى وفاقِ
إني انتهيْتُ إلى ضَياعِ
ليسَ العبُورُ إلى التوحُّدِ
مثلَ العبُورِ إلى الصِّراعِ ! ..

★ الورقة الأخيرة :

كلُّ شيءٍ يمُرُّ وتبقَى القصيدةُ
في ثوبِها المخمَليِّ
تُعطِّرُ بالفرَحِ الأنثوي طفُولتها
وتُشرِعُ للانتشاءِ الصباحيِّ
شُرفتَها
تبقَى القصيدةُ في المُنتهَى
تتقدَّمُها الأسئلةْ ! ..
وتنسُجُ عِندَ المَرافيءِ
غُربتَها ! ..

كمال قداوين

حول موضوع القيم :

الصمود والنضال من أجل الخير.. ومن أجل الغير

بقلم : د. عبد المجيد رزق الله

من القيم التى تزخر بها تونس الحديثة ، واجب الدفاع عن الكرامة الانسانية ، الذى كان الدافع الاساسى للتحرر والانعتاق (*) . ويجب أن يبقى هذا الواجب هو المحرك لتحقيق العدل بين الجميع ، باعتباره أداة التضامن الاجتماعى ، وأساس العمران .

وان الكرامة والعدل والتضامن هى من أولى درجات سلم القيم التى يجب مراعاتها واعتبارها تلافيا لقانون « الغاب » أو قانون « القطيع » ، الذى يتنافى مع انسانية الانسان وكنهه . وبدون ذلك لا سبيل الى تغيير المجتمع من حسن الى أحسن ، وجعله يقترب من الكمال الذى هو هدف يطلب ولا يدرك .

والانسان من طبيعته انه تتنازعه نزعتان متناقضتان ، الاولى نزعة الخير ، والثانية نزعة الشر . الا ان الحياة الاجتماعية ضرورية ، ذلك ان الانسان ، كما يقول الفيلسوف روسو : « لا يصبح اجتماعيا الا اذا صار كائنا أخلاقيا وحيوانا عاقلا وملكا للحيوانات الاخرى وصورة لله على الارض » .

وهذا يتطلب السعى المستمر الى تغليب نزعة الخير على نزعة الشر ، وهو ما يتأتى بالتربية ورفع المستوى الاخلاقى والذهنى وبالثقافة الحق وبتقوية الشخصيـة .

(*) انظر « الفكر » عدد 8 لشهر ماى 1986 .

وقد يعترى الانسان فى حياته فترات يكتنفها الضعف والشك والياس ، وخاصة فى هذا العصر الذى استفحلت فيه فوضى القيم وبلغت حد الفقدان والفراغ ... ولكى يسترجع الانسان انسانيته ، ويتقى شر الامراض النفسية والاخلاقية الخطيرة ، لا بد من الصمود أمام الصعاب وأمام المغريات ، ولا بد له من النضال من أجل الخير ، وان لا يعيش من أجل نفسه فقط بل أيضا من أجل غيره .

والصعوبات الواجب مجابهتها ، والمغريات الواجب تلافيها ما هى الا نتائج تطور المجتمع تطورا فيه شىء من الطفرة وشىء من عدم الاعتدال فى الرغبات ومن الانانية المفرطة .

وأمام هذه الحالة من واجب المسؤول عدم الانسياق بل الصمود ، والصمود لا يعنى السكون ، بل التحرك والنضال والتخطى والتجاوز من أجل مواصلة التقدم والرقي الذى يجب أن يبقى سنة الكون وسنة الله فى خلقه .

والتقدم المطلوب يقتضى مقاومة ما هو سلبى فى المجتمع وتعويضه بما هو ايجابى ، وذلك يعنى أساسا تعميق الشعور بالمسؤولية الاجتماعية والتعود على الحوار الحر النزيه والجدال بالتى هى أحسن من أجل الوفاق والتوافق عوضا عن الصراع والتناحر .

والغاية القصوى من كل ذلك هى تحقيق العدل السياسى والعدل الاقتصادى والعدل الاجتماعى ، والعدل الاجتماعى هو الركيزة الاساسية فى بناء المجتمع وعليه يتوقف أمنه وبقاؤه واستمراره .

على ان كلمة العدل أو العدالة معناها يحيط به شىء من الغموض . كما ان هناك خلط بين فكرتى العدل والمساواة . فالعدل الاجتماعى هو اختيار انسب الناس لكل موضع وهو ما يختلف عن المساواة .

والعدالة الاجتماعية تقوم على أساس حاجات الناس لا على أساس «الحقوق» المزعومة لاصحابها كما يوجد فى النظام الرأسمالى الاحتكارى الجشع. كما انها لا تقوم على أساس الجدارة التى هى ليست مطلقة .

وعلى سبيل المثال من العدالة ان يعيش العامل بحد ادنى من الاجر قيمته كذا ، وزيادة عندما تتوفر الامكانيات . ومن العدالة ان يبقى الساكن في ملك غيره عند ضرورة المأوى ، وليس الامر حق امتلاك . ومن العدالة أن يجد الانسان ما يسد به الرمق وأن لا يبقى محروما من قوت العيش .

ولكل مجال أساسه الصالح له من أسس العدالة: فهناك مجال الحقوق الذى يحددها القانون لاصحابها وتضطلع به المحاكم ، وهناك مجال الجدارة الذى له أساس آخر للعدالة وهو اتاحة الفرص للجميع . وهناك مجال ثالث يتحتم ان يكون أساس العدالة فيه حياة الناس ومتطلباتها الضرورية .

هذا ما يجب أن يسعى اليه الحكم الصالح حتى يحصل على رضى المحكومين وحتى لا ينخرم المجتمع وحتى يبقى متماسكا لا تفل فيه الصعاب والمحن وحتى يستمر فى تقدمه ورقيه من حسن الى أحسن .

وهذا هو معنى الصمود والنضال الذى يجب ان يكون من أجل الخير العام وان يكون بعيدا عن الانانية عملا بمبدإ « العيش من أجل الغير » .

د. عبد المجيد رزق الله

مرايا الظلّ والعتمة

قصة: حليمة مصباح

اشتد أنينها فى تلك الليلة من ليالى الخريف الشاحبة ، وارتفعت شحنة الوجع فوق محياها المتعب ، لقد داهمها المخاض آخر الليل وزوجها غائب عن البلدة ، وكانت ابنتها الكبرى ترقد ساكنة داخل فراشها ترقب والدتها بطرف خفي وهى تروح وتجيء وسط الغرفة ، تشد وسطها بيديها وتتلمظ بشفتيها . كانت شديدة الشحوب عندما التفتت الى ابنتها تدعوها للاسراع باحضار « الحالة مبروكة » قابلة القرية وهى امرأة مسنة تجاوزت العقد السادس من عمرها وما تزال تمارس مهنة التوليد التقليدية ، والنساء الريفيات يتبركن بها ويرون فيها رمزا طيبا من رموز الزمن الماضى ، الطاهر ، السعيد .. ذلك الزمن الذى كان كل شىء فيه وادعا .. آمنا .. مطمئنا ...

لم يكن بيت « الحالة مبروكة » بعيدا فما هى الا لحظات حتى كانت مع الفتاة تجتاز عتبة باب المنزل ملتفحة بملاءتها السوداء ، العتيقة ودعواتها بالخلاص تسبق خطواتها المتئدة ، البطيئة .

تسللت رائحة البخور من المبخرة الطينية بيد القابلة تعبق فى اجواء البيت برائحة شذية ، عطرة ، تذكى فى الانسان توقه الدائم الى عوالم زكية كانت فيما مضى بمثابة المقدس واليوم غدت ظلالا باهتة لعادات قديمة .. لم تكن هذه المرة هى الاولى التى يأخذها فيها المخاض آخر الليل فقد سبقتها سبع ولادات متتالية ، وكان السؤال الاكثر الحاحا عقب كل حمل .. « ما هو جنس المولود الآتى ؟ » والاجابة كانت : دائما بنتا أخرى تضاف الى قائمة البنات فى الاسرة .

ترنحت متألمة بما تنوء به من حمل ووجع وامسكت بيد العجوز تستند اليها بينما وجدانها المهزوز يحاورها فى صمت مر .. لم هى من دون كل النساء فى

القرية تصاب بهذه اللعنة العظمى .. لعنة انجاب الاناث .. يا لحياتها الآثمة ومصيرها الاسود .. تظل اللعنة أبدا تطاردها كالوجع المحموم .. « ترى ما هو جنس المولود الآتي ؟ » والمخاض يشتد ، يحكم قبضة الألم على الرحم المرهقة .

بالامس فاجأها زوجها بعزمه على الرحيل .. كانت تخيط بعض ثيابه عندما قال بعد مشادة كلامية بينهما :

ـ سأترك لك الدنيا واسعة تمرحين فيها مع بناتك ، لم أعد أطيق البقاء معكن ، لقد ضقت ذرعا بكن وموعد ولادتك قد أزف سوف تضعين مصيبة اخرى لو شهدتها ساخرج من عقلي بالتأكيد لذلك ساسافر الى نفطة لأقيم عند اختي واذا وضعت ولدا ..!

فقاطعته قائلة بعدما لمست مقدار السخرية والاستهزاء في كلماته الاخيرة..

ـ استغفر الله العظيم ما هذا الكلام السيء ..؟ لا تيأس من رحمة الله فربما يهبنا مولودا ذكرا هذه المرة ، إني أحس بجوفي أكثر امتلاء ولم أشعر بمعاناة في الرحم مثلما عانيت في هذا الحمل الاخير ..

ـ مولود ذكر ! تلك امنية دون تحقيقها المستحيلات ... فمن كان لها هذا الوجه الممسوح كالمسحاة مثل وجهك لا تنجب الذكر ابدا ..

انكمشت قليلا متكورة على ذاتها لحظة خاطفة فقد مس بكلامه الجارح وترا حساسا من أنوثتها الموؤودة ، بيد أنها تمالكت نفسها وتماسكت قائلة :

ـ لم لا تدعو الله معي أن يرزقنا بالولد فلو أخلصت الدعاء واستعذت ثقتك بالله وطردت الشيطان لاستجاب الله لنا .

لم يعقب على كلامها . وانشغل بثيابه يرتديها وفمه يرسل الشتائم والسباب يندب حظه التعس ويلعن اللحظة التي قرر فيها أن يتخذها زوجة فقامت اليه تهدىء روعه وتسكن بطشه بكلمات تعودت اختزانها لمثل هذه الظروف فكان يزداد اهتياجا لكثرة سماعه منها .. قالت تحاول أن تثنيه عن عزمه للسفر :

ـ ترى اذا رحلت ماذا يقول الناس ؟ وبماذا ساواجه تساؤلاتهم عنك؟.. بل ماذا سيقول صهرك وهو الرجل الغريب اذا قدمت عليه مغاضبا ؟.. ولمن

ستتركنا بعد غيابك وليس لنا من عائل سواك .. لا يهرب من قضاء الله الا الكافرون انها مشيئته اقتضت أن تكون ذريتنا من البنات .

ـ ليقولوا ما يقولون فانا أدرى بمصيبتي ، ان كلمات «العربي بن مسعود» ذلك الخنزير الآدمي ما تزال ترنّ في أذني ليلا ونهارا وقد كنا نحفر البئـر الجديدة في الغابة صحبة جمع من العمال ، نظر إلي متهكما وابتسامته الخبيثة تعلو وجهه الماكر وقال : « لو كان لك ابن ذكر ما كانت حالك هذه الحال » **، كلما تذكرت ذلك اليوم الاسود أحس بسكين حادة تنفذ الى أعماق قلبي تستأصل منه جذور الفرحة .**

ما هو جنس المولود الآتي ...؟ سؤال يمتلك الاحاسيس .. يضغط على أنفاس المرأة التي جاءها المخاض آخر الليل ودعوات القابلة العجوز تتناغم مع أناتها كالتراتيل الصوفية والبخور يتصاعد من المبخرة الطينيـة والسـؤال يضغط .. يتدافع الشجن الداخلي يغزل من اشراقات الحزن المخبوء الاشراقة الحبلى بالوجع الآسن يتراكم حلقات دائرية تتداخل هاربة من غموض الحـدث الآتي فقد يدرك المجهول اللحظة الهاربة حين تتناثر الدوائر وتتقوقع داخل صراع الازمنة المتماثلة ، المتلاحقة .. تلهث وراء الومضة الصفر .

تراقصت عيون بناتها السبع ينظرن اليها في فزع قاتل .. تحولت الاحداق الى بحيرات مفتوحة ظلت تتسع .. وتتسع .. تفيض وتضطرب بين المد والجزر فانفلتت الصيحة الاقوى وكان أول القلق ...

احتضنتها العجوز وشدت على كتفيها وقالت :

ـ هيا تشجعي طلقا آخر وينزل الفارس المنتظـر .. اراهـن بخبرتي في « القبالة » ان المولود سيكون ذكرا .. فهذا الطلق ما كان للانثى .

تفصد العرق حارا من مسامات الجلد يتصبب متقاطرا على الثياب اللاصقـة بجسمها المهدود والآلام ما تزال حبيسة صدرها المفؤود تتلوى وتتوجع هاربة من الجو المكهرب في أعماقها .. تحاول جاهدة أن تفلت من ارهاصات السؤال فتطاردها الافكار الموحشة توقظ أجراس الخيبة والانفعال بمخزون الذاكرة .. الرفسات تطعن الجسد .. تطعن جنباته طوال عشرين عاما عمر زواجها .

كانت يافعة الصبا .. مضيئة الوجه .. مشرقة العينين .. تنفتح للحيـاة أكمامها المغلقة كزهرة الوادي تحاكي العصافير ايماءاتها الطلقة وهي تشدو

بفرحة العمر .. وتزف لابن خالتها عروسا جنوبية ، مخضبة الكفين والقدمين بالحناء تتهادى بخيلاء الواثق من موضع الخطـو ، تسكن الى خدرهـا فتظلـل عريسها بشعرها الليل الفاحم كسواد الظلمة . وتمضى الايـام فى هبوبهـا المجنون تبتلع اشراقات العرس ثم تطوى الفرحة الاولى بالمولـودة البكـر .. تخفت الأنوار شيئا فشيئا .. تتغير الاشياء والالوان ويصبح العالم المرئى بركا راكدة من رتابة مملة..ويتطاول الزوج يثقل كاهلها بارهاصات الذكر.. يحتكر لذاته حتى الانفاس التى تتردد فى الصدر فتكبر المأساة .. تصطبغ محارتها بالوان قزحية تنعكس الى مرايا من الظل والعتمة تحاصر الانثى .. تشدها الى بوتقة الرجل .. تجهض فيها كل محاولة للخروج من دائرة الظل والعتمة .

تكومت متهالكة على أرضية الحجرة تتأوه من شدة الالم وقد حاصر كامـل كيانها ونزع منها كل قدرة على المقاومة والاصطبار وغدت أعصابها مشدودة فى انتظار لحظة الميلاد البارقة ومضت الثوانى تدق على أوتار الزمن فى الساعة المعلقة على الجدار والقابلة العجوز تدور داعية والمبخرة فى يدها .. يا الله .. يـا محمـد .. يـا أولياء الله الصالحين .. يـا سيدى عبد القادر الجيلانى .. يـا سيدى التواتى .. يـا سيدى يحيى .. يـا حمد زريبة بواب المـدينة ..

الدعوات تتابع فى انتظام رتيب والثوانى توالى دقاتها فى سـاعة الجـدار الخشبية .. تمرق ذبذباتها كاللوالب الدوار وأشعة الضوء الخافت تتكسر على ذات المرأة المرتعشة الاوصال بثقل هواجسها مخاض آخـر الليـل فتتـوحد الموجودات وتوقظ طعنات القلب الجريح : ما هو جنس المولود الآتى ؟ سأترك لك الدنيا واسعة تمرحين فيها مع بناتك .! ما هو جنس المولود الآتى ؟ من كان لها هذا الوجه الممسوح كالمسحاة لا تنجب الذكر أبدا .. ما هـو جنس المولود الآتى ؟.. أراهن بخبرتى فى القبالة أن المولود سيكون ذكرا .. ما هو جنس المولود الآتى ؟..

تقاطيع الفجر البازغ تطلع على الدنيا تفجر الطلق الاخير وينزل المولـود فيصيح آه .. ثم تطلع صيحة أخرى من مولود آخر ينزل ...

دمعت عينا القابلة وهمست بانكسار كالموت :

ـ اثنتـان !

حليمـة عبـاس

بمناسبة المؤتمر الرابع لتاريخ المغرب وحضارته

المدن ومجتمعات الحضر في المغرب

بقلم : عبد الرحمان التليلي

ان الاهتمام « بالمدن المغربية ومجتمعاتها » معناه الاهتمام بالماضي لتوجيه الحاضر الى المستقبل وهو الموضوع الاساسى الذى طرحته « أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ المغرب وحضارته » ، الذى انعقد تحت اشراف الجمعية التونسية للمؤرخين الجامعيين » من 11 الى 13 من شهر أفريل 1986 بتونس العاصمة.وإنه لدلالة قاطعة على مواكبة المسيرة العلمية التى توختها الجمعية التونسية للمؤرخين منذ مؤتمرها الاول ، وفى ذلك دلالة أيضا على تصميم وعزيمة المؤرخين والباحثين الذين سخروا أقلامهم لمزيد التعريف والتعمق مع التخصص بتاريخ المغرب وحضارته وذلك سعيا لبناء حاضر وتمهيدا لمستقبل فى مستوى أصالة وعراقة ماضينا .

نالت المدن المغربية اهتماما كبيرا فى كتب التراث وقد عرفت المدينة بأنها مكان الاقامة المستقرة ، وان لفظ المدينة أشتق من مدن اى اقام ، وقيل ان المدينة هى الحصن يبنى فى أصطمة الارض ، وكل أرض يبنى بها حصن فى اصطمتها فهى مدينة ، والنسبة اليها مديني ، والجمع مدائن ومدن .

ان موضوع المدن ووصفها من الموضوعات التى لا يخلو منها أى كتاب من كتب التراث الجغرافية التى اهتمت بذكر تحديد الاقاليم التى تنتمى اليها المدينة مع تحديد عروض المدن وأطوالها كبسط الارض لابى سعيد المغربى ، وتقويم البلدان لابى الفدا .

وقد زاد الاهتمام بالمدن فى كتب **المسالك والممالك والاقاليم** فى كتابات كل من الاصطخرى واليعقوبى والبكرى والمقدسى والادريسى الذى ولد بمدينة سبته سنة 1100 م ومن كتبه : **نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، روض الانس ونزهة النفس** المعروف باسم **المسالك والممالك** ، كذلك **مقدمة ابن خلدون** الغنية بالافكار الاصيلة التى تتعلق بنشوء المدن وتطورها وتصنفها حسب وظائفها وتطورها وما كتبه بهذا الصدد يعتبر أساسا لكثير من المفاهيم الحديثة التى يهتم بها علماء الاجتماع ومخططو المدن وجغرافيوها .

نظر ابن خلدون الى المدينة كحقيقة تاريخية اجتماعية وكظاهرة جغرافية تقوم باداء وظائف على جانب كبير من الاهمية ، وان وجودها يمثل مرحلة من مراحل التطور الحضارى ، يأتى بعد البداوة اعتقد ابن خلدون ايضا بانتأسيس المدن ليس من الامور السهلة وقد لا يتم الا بتعاون السكان وتضامنهم ووجود سلطة فعالة تستطيع أن تحمل أفراد المجتمع على المساهمة فى عملية البناء والتشييد .

المعاجم الجغرافية وكتب الرحلات :

اهتمت المعاجم الجغرافية بذكر المدن والاشارة الى مساجدها وأسواقها واهم منتوجاتها **كمعجم ما استعجم** للبكرى الاندلسى المتوفى بقرطبة سنة 1040 م .

ومعجم البلدان لياقوت الحموى الذى فسر فيه أسماء المدن ، وسنوات فتحها . كذلك **تقويم البلدان** لأبى الفدا .

كما حفلت كتب الرحلات التى اعتمدت على المشاهدة والوصف المباشر بذكر المدن وسكانها ومن أشهر جغرافى الرحلات المسعودى صاحب كتاب **مروج الذهب ومعادن الجوهر** والادريسى وابن جبير وابن بطوطة وكتابه : **تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار** . كذلك ابن حوقل النصيبى المتوفى بعد 997م الذى اشتهر بكتاب **صورة الارض** كما يعتبر ابن حوقل من بين أشهر من تخصص فى القرن العاشر فى معرفة الغرب الاسلامى وهى المنطقة التى لم يكن جغرافيو المشرق يعرفونها معرفة جيدة ، وتأتى أهمية هذا المؤلف لكونه قد تسنى له أن يقيم فى تلك البقعة من العالم . وهذه الاهمية أشار اليها هذا الجغرافى نفسه عندما أكد أنه ألف كتابا عن صقلية فى عشرة فصول .

طبيعة العمران :

يبدو اهتمام ابن حوقل بطبوغرافية المدن واضحا فى كتابه **صورة الارض** ، حيث يكتسب الموقع الجغرافى للمدينة أهمية قصوى ، ويخضع اختيار الموقع الى عاملين أساسيين : توفر الماء ولابد من ضمان أمن المدينة وخاصة ميناءها . ولعل أبرز مثال على ذلك المهدية باعتبارها ميناء محمية .

أنواع المدن :

لابد من التمييز بين المدن القديمة التى اتسعت فى عهد المسلمين وبين المدن التى أنشؤوها فمن بين المدن التى تم توسيعها مدينة تونس التى يعود تاريخ

نشوئها الى العصور القديمة حيث كانت تسمى « ترشيش » أما تـونس فهو الاسم الذي أعطى لها بعد دخول المسلمين اليها . وفي طنجة أقيمـت المدينة الجديدة على بعد أميال لاسباب استراتيجية وهكذا يمكننا القول : إنه كان في أغلب الاحيان تواصل بين المدينة القديمة والمدينة العربية ومن بين هذه المدن القيروان . وهناك المهدية التي أنشأها الفاطميون والحجار ومسيلة وفاس التي أسسها الادارسة . هذا وقد عرف المغرب توسعا عمرانيا مهما منذ الفتح العربي

دور المغـــرب :

ان المغرب ليس منطقة معزولة فابن حوقل يسعى الى ابرازه على أنه مركز للعلاقات بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب وبلد قاري ومتوسطي في الوقت نفسه . وهو بذلك منطقة اتصال تختلف عما كانت عليه في العصر الروماني . فموقعه استراتيجي من الناحية الاقتصادية لسببين : وقـوعه بين اسبانيا والمشرق من جهة وبين العالم الاسلامي وافريقيا السوداء من جهـة أخـرى .

ملامـح الفتـح العـربي :

يمكن الاشارة الى ملامح ثلاثة تميز بها الفتح العربي الاسلامي :

- وأول هذه الملامح الدور الذي لعبه المغرب . فافريقيا لم تعد مقاطعة تربطها علاقات بالمتوسط فقط كما كانت عليه في العصر الرومانـي وانما اصبحـت مندمجة بالقارة الافريقية وذلك بشقها طرقا باتجاه بلاد السودان واخرى متطورة بين الشرق والغـرب .
- اعادة تنمية الاراضي مع نزوع الى التحضر .
- وأخيرا تقدم واضح في مجال العمـران .

كلمـة ختـاميـــة :

شهد المغرب في عهد الفتوحات العربية الاسلامية توسعا في شبكات الري ، كما شهد في القرن العاشر ظهور نباتات وفدت عليه مـن المشرق . وهكـذا أضيفت الى المنتوجات القديمة زراعات جديدة كقصب السكر والقطن وزراعة أشجار التوت ودودة القز والحمضيات والزعفران ، وارتبط النهوض العمراني الجديد بتزايد العلاقات بين المغرب والمشرق من جهة وبين المغرب واسبانيا من جهة أخرى وهكذا فان لانشاء مدن مثل فاس والقيروان علاقة بالواجهة الجنوبية للتجارة المغربية . كما ظهر من جديد التوسع العمراني في المناطق نفسها التي شهدت زواله قبل ذلك لفترة طويلة .

د. عبد الرحمان التليلي

بحر الحب

شعر : محمود عبد العزيز عامر
(القاهرة)

فؤادي قد تحيرَ ليس يدري ... أنارٌ بالجوارح ؟ أم بصدري ؟
فبي شوقٌ له لهبٌ ونارٌ ... فكيف أعيشُ في لهبٍ وجمر؟
اذا صافحتُهُ صافحتُ روحا ... تفيض عليه من أدبٍ وطُهر
أراه وقد تهادى حين يخطو ... كغصن البانِ مُزدانا بعطر
أرى في مُقلتيه بريقَ نور ... وفوقَ جبينه مكنونَ سحر
أهيمُ بذكره في كل يوم ... كنورِ البدر في ليلي وفجري
يُداعبني الخيالُ وفي عيوني ... مداعبة الهوى سرا بسر
ولكني الغريقُ فكيف أنجو ... وبحرُ الحبِّ لم يؤمن ببر؟
وها هو قد رمى سهما بقلبي ... واني قد وهبت إليه عمري
ولكن يعتري نفسي ذهولٌ ... فأنسى حكمتي ويضل فكري
إليه مشاعري وحنينُ قلبي ... عساه يُفيقُ عن صدي وهجري
فؤادي باتَ في صمتٍ وسهدٍ ... تُرى هل من أحب يعي ويدري !؟

منهجية التحليل والتركيب من خلال مقالة: "التحليل والتركيب لابراهيم بن قرة"

بقلم: أبو يعرب المرزوقي

- 3 - (*)

III. 2. الوعي العلمي او المنهجية العلمية

اذا لم يكن المضمون الرياضي هو الذي يميز هذه الرسالة ويبرز طرافتها لكونه اقتصر على مجرد التمثيل المبسط بقصد وروية، فان موضوعها المنتسب الى المنهجية العلمية يحدد بصورة بينة مقدار الوعي العلمي او النظري الذي يحدو صاحبها أعني ان مقالتنا هذه من جنس ما بعد العلم الرياضي أكثر من كونها من جنس العلم الرياضي . وهي من هذه الجهة أصيلة ومبتكرة من وجهين : 1) من حيث نظرتها الى التحليل والتركيب في علاقتهما بالمنطق شكلا وبتصنيف المسائل الرياضية مضمونا ثم من حيث قلب العلاقة بين الموضوعات الرياضية ومنهجية تناولها اذ صارت المنهجية هي المستهدفة ولم تبق مجرد آداة أي اننا انتقلنا من تصور المنهج كمجرد ارغانون الى اعتباره علما قائم الذات .

فلا شك أن أبولونيوس كان يستعمل التحليل والتركيب مستوفيا حقهما بشهادة ابن قرة في حديثه عن هذه المسالة في كتاب الشمس (37) ولا شك أن بابوس قد أفرد حديثا طويلا عن المنهجية التحليلية في «الذخيرة التحليلية» التي جمع فيها جل الاشكال والمسائل الرياضية التي كانت متداولة في مدرسة

(*) انظر «الفكر» ع : 7 و 8 — س : 31 — 1986 .

(37) حركات الشمس ، النص المشار اليه عند الحديث عن غرض تقويم المنهج عند المهندسين .

الاسكندرية فى القرن الرابع الميلادى (38) ٠ لكن العلاقة بالمنطق شكلا وبتصنيف المسائل مضمونا لم يسبق اليها ابن قرة ، بل انه فى ذلك المؤسس وليس ذلك لقوله فى صدر المقالة : إنه بادىء هذا العلم بل لان ذخيرة بابوس وهى أقرب عمل رياضى اليه زمانا وآخر ما انتج الفكر اليونانى بهذه الدرجة من السمو النظرى ـ تأتى شاهدا على هذه الجدة وهذا التقدم المسند الى ابن قرة : فاصناف الاعمال التحليلية أعنى المغالطات (Les Pseudarias) والاصول فى بعض أشكالها المنحولة (وخاصة فى المقالة الثالثة عشرة) والمعطيات وقسمة الاشكال والمحصولات أو البورزمات وهى أصناف الاعمال المعدة للتحليل والمستعملة له تبقى كلها من جنس التطبيق لمنهج التحليل والاستعمال له أداة ولا أحد منها قلب العلاقة فجعل المنهج موضوعا والمسائل الرياضية أداة لدرسه 2) كما أن الاستدلال المنطقى هو أحد وجوه الاستدلال الرياضى الذى يعتمد على البناء والربط المفهومى بين عناصر الشكل المعطاة أو المضافة لكن استعمال ابن قرة للمنطق يأتى على خلاف ذلك : اذ بالاضافة الى الاجراء الاستكشافى (التحليل) والاجراء البرهانى (التركيب) حيث يكون المنطق وصفا لآليات هذين الاجرائين المستعملين أداة ، نجد تحليل المنهج العلمى بما هو تطابق هذين الاجرائين تحليلا منطقيا من جنس الصنيع التبديهى أو العمل الاكسيومى : ذلك أن تحويل علاج المشاكل الرياضية الى مشكل رياضى ليس الا الدرجة الثانية من فعل التبديه ٠ فالمعلوم أن الرياضيات القديمة فى شكلها الاقليدى اكسيومية بدائية وذلك لعلتين : الاستناد المزدوج الى الشكل المنطقى والمضمون الحدسى ثم الترتيب غير النسقى للمسائل المتناولة فى مقالاته لكونها ليست استخراجا منتظما لكل ما يمكن استخراجه من المبادىء المسلمة فى الاساس ، بل هى شبه ذخيرة تجميعية لحصيلة المعارف الرياضية عصرئذ (39) ٠ فاذا جعلنا هذا التبديه الاول هو بدوره موضوع تبديه ثان يسعى الى ترتيب المسائل وتصنيفها وتحليل المعطيات بالاضافة الى جهات الحلول (40) فاننا عندئذ قد قلبنا العلاقة رأسا على عقب بين المعطيات والحلول فصارت تلك تصاغ من أجل هذه مما يحولها الى أدوات وبذلك تنتقل من المبادىء القطعية الى المبادىء الافتراضية ثم بين الموضوع والمنهج فصار الشكل هو الغاية والمضمون الوسيلة:

---

(38) راجع هيث ، مقالات اصول اقليدس ج I ، ص I38 وترجمة الذخيرة ، فان / آكه الى الفرنسية ٠

(39) راجع كتابنا الرياضيات القديمة ، الباب الاول منه ٠

(40) اذ ما فيه من مسائل هو الذى أصبح موضوع تصنيف ٠

وسعى ابن قرة الى اكسمة القديمة أو انشاء ما بعد الرياضيات القديمة ، مهما كانت نتائجه ضئيلة فى البداية هو المنحى الضــرورى لادراك الطبيعـة الشكلية الخالصة للرياضيات والانتقال من طغيان المضمون والحدس الى طغيان الشكل والمفهوم • ولعل هذه الظاهـرة فى تـرك المضمـون الى الشكـل فى الرياضيات لم يكن العمل التبديهى التجاوزى الفريد من نوعه فى الفكر العربى• فلقد اشار ابن خلدون الى عمل شبيه بهذا حدث لمنطق أرسطو فى الباب السادس من المقدمة اذ يقول : «ثم جاء المتاخرون فغيروا اصطلاح المنطق» ••• ويضيف «ثم تكلموا فى القياس من حيث انتاجه للمطالب على العموم لا بحسب مادة» ليختتم هذا الحديث عن التغيير الحاصل فى المنطق بالقول : «ثم تكلموا فيما وضعوه من ذلك كلاما مستبحرا ونظروا فيه من حيث انه فن برأسه لا من حيث انه آلة للعلوم» (41) ان هذا الفصل بين المنهج ومادته وجعل المنهج مادة علم بصرف النظر عن مادته هو الذى عنيت عندما قلت : إن عمل ابن قرة من جنس ما بعد العلم الرياضى أو من جنس العلم الكـلى بالمعنى الديكـارتى فى كتاب القواعد (42) •

III • 3• الفنون الواردة فى هذه المقالة او طبيعة الحاجة النظرية التى يستجيب اليها

ننتقل الآن من البعد الاول من تاريخ العلم المتعلق بمدونة القضايا وبالمنهج لننظر فى شروطها الاجتماعية نظرة تحدد طبيعة الحاجات النظرية او كيفية انشداد النظرية الى الممارسة التى تدفعها بما تضعه لها من اشكالات وتطلبه منها من أدوات نظرية • لقد رأينا أن العلاقة انقلبت بين المضمون والشكل : تقدم الشكل هنا ليس ابتعادا عن الممارسة ؛ بل هو تخليص للادوات النظرية من ارتباطها بمضمون محدد لادراك ما هو كلى فيها ومن ثم لتعميم استعمالها أداة فى غير ما ارتبطت به أولا من مضمون حدسى معين : وتلك هى جدلية التقدم العلمى عامة والرياضى خاصة •

(41) المقدمة ، الباب السادس ، الفصل 23 ص 912 ـ 913 من طبعة دار الكتاب اللبنانى بيروت 1967 ط 3 •

(42) ديكارت ، القواعد ، القاعدة الرابعة •

وفعلا ففى عملية تصنيف المسائل لم يعالج ابن قرة مسائل رياضية جديدة، أعنى انه لم يحل مسائل رياضية لم تكن محلولة مثل محاولة تربيع الدائرة او قيس مساحة القطوع أو تربيع المكعب أو تقسيم الزاوية بحسب نسبة تفوق الاثنين ، بل هو من هذا الجانب اقتصر على تطبيق ما كان معلوما من المشكلات الرياضية ليمثل الى بحثه • لم يكن غرض ابن قرة اذن تنميه النظرية من جهة انما صدق بأن يضيف معلومات جديدة حول خاصيات منحن أو تحديد حجم أو مساحة ، بل غرضه تنميتها من حيث المفهوم : أى بجعل ما كـان معلـوما موضوع علم جديد بحيث يصبح العلم موضوع علم هو بالنسبة اليه ما بعد علم • فما العلة فى ذلك ؟ خلافا لما قد يظن من الوهلة الاولى : العلة تـوظيف الرياضيات بما هى نظرية أو مدونة نظرية لحل مشكلات عملية فاذا صارت تقنيات الحل موضوع بحث نظرى فالعلة فى ذلك هو السعى الى ادراك هذه التقنيات ادراكا منتظما لاستعمال النظرية الناتجة عنه فى تكوين المحتضنين الذين سيطلب منهم استعمال تلك التقنيات فى اختصاصاتهم : ومعنى ذلك أن تقديم الممارسة العملية ذات الادوات النظرية على النظرية الخالصة هو الذى جعل فنيات الحل تصبح موضوع نظرية ، حتى ان نصر الدين الطوسى قد خصص رسالة يبحث فيها عن هذه الوسائط بين النظرية الرياضية الجاهزة (الاصول) والممارسة ذات الادوات النظرية (الفلك والمجسطى) حيث يقول فى رسـالـة تحرير الكرة لمانالاوس فى الاشكال الكرية ما يلى «انى كنت أريد أن احرر الكتب الموسومة بالمتوسطات ، أعنى الكتب التى من شأنها أن تتوسط فى الترتيب التعليمى بين كتاب الاصول لاقليدس وبين كتاب المجسطى لبطليموس» (43) قلب العلاقة هذا جعل النظرية مجرد أداة يحكم لها أو عليها بنجاعتها العملية ، وتحديد النجاعة العملية التى للنظرية لتكون موضوع نظرية هى بدورها تجعلها قابلة للتعلم المنتظم وذلك هو غرض كتاب ابن قرة : الغرض التعليمى صريح فى هذا البحث كما اشرنا الى ذلك فى غرض الرسالة ، أعنى فى الفصل الاول من بحثنا •

ان تبديه المسائل وتبديه منهج البحث فيها أساسه اذن قلب العلاقة بين الممارسة والنظرية حيث أصبحت الثانية أداة الاولى مما جعـل الربـط بينها يصبح موضوع هذه المقالة ولنذكر بهذا النص الذى يحدد فيه الكاتب جنس

---

(43) نصر الدين الطوسى ، الرسائل ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الدكن الطبعة الاولى 1339 هجرية ص 2 •

المسائل التى يسعى الى درسها ودرس منهج حلها فى مقالته ؛ يقول ابن قرة : «مسائل الهندسة تخرج فى القول على ثلاث جهات اثنتان منها وان اختلفتا فى ظاهر القول ترجعان الى أمر واحد والثالثة غير موافقة لها • فان المهندس يسأل على هذه الجهة : كيف يعمل مثلثا مساويا لمثلث معلوم ويكون شبيها بمثلث معلوم ؛ وقد يسأل المهندس على جهة ثانية ، فيقال له اذا كان مثلث معلوم كيف تعلم اضلاع المثلث ووسنبين مستانفا ان هذين القولين يرجعان الى معنى واحد • ويسأل المهندس على جهة أخرى وهى هذه : كيف تبين أن كل خطين يتقاطعان فى دائرة ينقسمان بأقسام تحيط بسطوح متساوية وهذه تسمى عندهم اذا تبين الحكم والقضية ، وكقولك كيف تبين أن كل مثلث متساوى الاضلاع فالاعمدة الثلاثة التى تخرج من نقطة فى داخله مثل عمود من أعمدته» (44) •

لقد اشرنا الى هذا النص فى الفصل الاول وقلنا اننا سنعود اليه فى التعليق والعلة أن هذا النص يمثل أكبر حجة على كل استنتاجاتنا • وذلك من وجهين: رد المطلبين الاولين الى نفس المطلب ثم الاقتصار عليهما واستثناء الثالث من مجال البحث •

١) ــ فالمعلوم أن التمييز بين هذه المطالب من الامور المعلومة فى الرياضيات القديمة حتى قبل اقليدس (45) وهذا تعريفها عند كل من بابوس وبروكليس كما يورده هيث فى كتابه مقالات أصول اقليدس الثلاث عشرة يقول بابوس : «ومما يثبت أن القدامى كانوا أدرى بالفرق بين هذه الامور الثلاثة (أعنى المعمولات والنظريات والمحصولات) أنهم كانوا يقولون ان النظرية هى ما ينظر اليه بهدف البرهان عما هو موضوع نظر ، والمعمولة هى ما ينظر اليه بهدف بقاء ما هو موضوع النظر والمحصولة هى ما ينظر اليه بهدف اظهار ما هو موضوع النظر» (46) • والتعريف الذى يقدمه بروكليس اوضح فهو يقول : «المحصولات هو الاسم الذى يطلق على الامور التى ينظر اليها وهى بحاجة الى بعض الايجاد لكنها ليست موضوع ايجاد خالص مثل المعمولات ولا هى موضوع حجج عقلية مجردة مثل النظريات ، فتنصيف الزاوية وبناء المثلث وكل هذه الامور تتطلب عمل شىء ما • أما ايجاد مركز دائرة معينة او يجاد القاسم

---

(44) التحليل والتركيب ص 5 •
(45) راجع رسالتنا حول منزلة الرياضيات بين علوم أرسطو•
(46) هيث مقالات اصول اقليدس ، ص 431 •

المشترك لكمين متقايسين او ما شابه ذلك فهما من بعض الوجوه أمور وسيطة بين النظريات والمعمولات اذ أننا في هذه الحالة لسنا أمام عملية ايجاد لما هو موضوع نظر بل أمام اكتشافه كما أننا لسنا امام عملية نظر مجردة اذ من الضروري وضع ما هو موضوع نظر تحت النظر وابرازه للعيان . ومن هذا الجنس المحصولات التي كتبها اقليدس» (47) . ابن قرة يذكر الفرق بين المعمولات والمحصولات ثم لا يعتبره مفيدا فينفيه : وما دام قد اورده مستعملا مصطلح **يعمل ويعلم** فهو يقبل الفرق نظريا ؛ لكنه عندما يرفضه في بحثه ويعتبرهما عائدين الى نفس الامر ، فالمقصود أنهما في فنيات البحث عن الحل لا يختلفان : اذ كلاهما يستدعي التحديد الموحد والايجاد المحدد بخلاف النظرية التي هي من جنس النسق الافتراضي والحجاج العقلي .

2) أما استثناء النظرية أو النوع الثالث من المطالب فهو أكثر دلالة : فهذا الاستثناء يبين أن هدف هذا البحث هو تقنين فنيات الحل الرابطة بين النظرية والممارسة لا فنيات التنظير المتعلقة بالعنصر الثالث . وبهذا نصل الى العنصر الاخير من تعليقنا .

III . 4 . تبديه فنيات الحل والنظرية التعليمية

يقول أرسطو في مقالة الالف من كتاب ما بعد الطبيعة 982 أ 28 ـ 30 ما نصه العربي نقلا عن ترجمة تريكو : «ولنضف أن العلم يكون أحق بالتعليم بقدر تعميقه البحث في العلل ، ذلك أن التعليم هو ذكر علل كل شيء» ان هذه القولة الارسطية هي التي نعنون بها آخر تعليقاتنا على مقالة ابن قرة : فالتنظير مصدره التعليم والتعليم في ذروته تنظير . واذا كان التعليم وظيفيا أعني اذا كان يستهدف تكوين فنيين من نوع خاص هم في هذه الحالة الفلكيين والمهندسين بالمعنى العملي للكلمة صار موضوع التنظير فنيات ربط النظر بالعمل او فنيات وصل الممارسة بالنظرية وذلك ما سعى اليه ابن قرة في هذا العلم الجديد . والناتج من هذا العلم الجديد أو ما لابد أن ينتج هو صيرورة النظرية أداة تأسيسية تكون قطعية في الاول أي انها في البدء تبقى منزهه عن القدح ، الى أن تحتم الممارسة ضرورة تجاوزها لاستنفاذ امكاناتها وعندئذ تنقلب النظرية الى مجرد نموذج تفسيري طابعه الذرائعي هو الذي يحدد طبيعته

---

(47) هيث نفس المصدر ص 432 .

ومعياره الوحيد جدواه : وعندئذ تصبح النظرية نسق الحلول وعلم العلم أو العلم الكلي هو تبديه المشكلات وتبديه البحث عن الحل ٠ تلك هي ثورة ابن قرة في هذه الرسالة القصيرة وهي ثورة تلقي ضوءا ساطعا على ابستملوجية المساهمة العربية في العلم خاصة اذا ربطناها بما حدث في المنطق من نفس الانقلاب الذي اشرنا اليه في عرض ابن خلدون : ان المابعد الزماني في نسبة تعاطي العرب للنظرية اليونانية انقلب الى ما بعد نظري ، اذ أن تحجر العلم اليوناني بعد الفترة الاولى من العصر الهلنستي مع تراكم الوقائع العلمية المناقضة له أدى الى موقف نقدي حول النظرية من موقعها المحنط والمقدس أحيانا الى الموقع الذي يجعلها مجرد أداة نظرية تحتم الممارسة اعادة النظر فيها وتعويضها بنماذج أخرى أكثر منها نجاعة في تفسير الوقائع ٠

٠١٧ الخاتمة

ولنستخلص النتائج : وهي أربع نتائج بحسب مفهوم تاريخ العلم الذي انطلقنا منه :

1) المضمون النظري الرياضي : ليس هو المقصود في هذا البحث اذا اعتبرناه بالمعنى التقليدي أعني حل بعض المشكلات الجزئية ، ومع ذلك فالمقالة تدلنا عن البرنامج الذي كان يدرس في ذلك العصر وذلك بما ورد فيها من مسائل وأعلام من الرياضيين والفلاسفة ٠

2) الوعي النظري : البحث في المنهجية الرياضية لتبديهها والبحث في المسائل الرياضية لنفس الغرض : ومعنى ذلك أننا قد انتقلنا من العلم الى ما بعد العلم : عمل ابن قرة ليس رياضيا بل هو ما بعد رياضي ٠

3) الحاجات النظرية : قلب العلاقة بين الممارسة والنظرية جعل ربط هذه بتلك يصبح هو بدوره موضوع نظرية وبالتالي ينقلب الربط بين النظر والتطبيق الى نظرية هي العلم الكلي ويصبح التطبيق مقياس علمية النظرية مهما كانت ٠

4) نظرية التعليم : تكوين الواصلين بين النظرية والعمل هو تكوين العلماء وهذا هو الذي يجعل الممارسة النظرية للربط بين النظرية والممارسة هي التعليم المنظر والمنظر ٠

ان هذه الرسالة التى حللناها تحدد اذن طبيعة الدور العربى فى تاريخ العلم : فكون العلم القديم فى صبغته اليونانية قد أتاهم وهو يكاد يكون تاما ومنغلقاجعلهم يكونون بالنسبة اليه مجرد مطبقين فى الاول · لكن هذه الوضعية مكنتهم من ان يتنزلوا منزلة الوعى المتجاوز الذى يكون الوعى اليونانى موضوعا له مما جعل التساؤل العلمى والفلسفى يتحول عندهم من سؤال الوقائع وحدها لوضع النظرية الى سؤال النظرية التى كانت قد وضعت بعد لفهم الوقائع المستجدة والعودة على النظرية الواقعة لتغييرها بها : وهذان النوعان من التساؤل يحتمان وضع علم جديد موضوعه كيفية الربط بين النظرية والتطبيق أو بين النظرية والممارسة وهو موضوع جعل الربط بين النظرية والممارسة فى الاتجاهين ينقلب بما هو موضوع نظرية ممارسة نظرية وذلك هو مفهوم العلم الحديث : والعرب وصلوا اليه لا لعبقرية عرقية ولا لمعجزة ، بل لكونهم قد وجدوا النظرية جاهزة ولكون الوقائع لا يمكن الا أن تستجد دائما وأحسن مثال لهذا ما حدث من مراجعة لكل من فلك بطليموس وفلك ارسطاطاليس كما اشار الى ذلك الزميل الحلوانى (48) وما حدث من مراجعة لاصول اقليدس وما تلاه من اصول رياضية قديمة كما سعى الى ذلك الخيامى والطوسى فى الرسالتين اللتين سبق فأشرت اليهما فى هذا البحث وما حدث لمنطق أرسطو وما حدث لمناظر اقليدس وما حدث لاساس كل المعرفة اليونانية أعنى الميتافيزيقا ·

ابو يعرب المرزوقى

1984 – 1983

(48) فى دراسته حول كتاب القارسطون لابن قرة جد مترجمنا هذا وهى دراسة قدمت فى نفس الندوة التى قدمنا فيها بحثنا هذا ·

عَيْناكِ قدري

شعر : سمير الخياري

[الى عينيها ... مع خالص ودى]

* * *

يتقمص قلبي دور العاشقْ
فأجيئكِ ملغوما
بهتافِ حنيني
لأراجع هذا الصّمتَ بعينيكِ ..
أغوص بغيمات الصحو
إلى حدّ غياب أنيني
لأُرجِّعَ صوتي فيك
أسترجعُ ذاتي
أكسبُ كلّ الدّنيا
إذ أتملىّ في هاتين العينين

* * *

عين تغترفُ الصّمتَ القابعَ في صدري
عينٌ توقد نارَ الشوق على شفتي
فإذا بي أتغنّى باسمك كل اللّيل
منجذبا نحوك مولاتي

فدعيني أتربّع لحظة
في صحوة عينيكْ
ودعيني أتملىّ أكثر
في نار فتونكْ
ولتحرقْني النارْ ...
ولتحرقني النارْ
فلعلي بالنار أعودُ جديدا أتطهّرْ
ولعلّ النّارَ تحوّلني
قلبا حيّا
يتعطر بالدّمْ ...
يبحر في وهج يهلثُ بالصحوْ ...
في عينيك وميض البرقْ
ترنيمة مزمار ... لوعة آهْ
في عينيك رأيت الله
فدعيني في هذي الرّؤيا
كي يكثر شعري فيكْ
ويدوم الخصب بعينيكْ

سمير الخياري

صوت المرأة المسكونة بالعشق

بقلم: حسني سيد لبيب
(القاهرة)

مرت المرأة العربية، بفترات كبت وقهر، وسيطرة الرجل وسلطانه. وبدأت صيحات التحرر مع أوائل هذا القرن. وقامت في مصر على وجه الخصوص دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة وحقها في اثبات شخصيتها وكيانها. وفي مجال الادب، ظهرت أقلام نسائية مثل ملك حفني ناصف ومي. وقد حظيت الاقلام النسائية بالتشجيع، ونالت شهرة تفوق شهرة الرجل. ولعل السبب الاساسي يرجع الى كونها امرأة في مجتمع لا يقر ظهورها، ولا يعطيها الفرصة لتعبر عن أحاسيسها ومشاعرها. حتى ان بعض العائلات الموسرة في مصر، كانت تستدعي المدرسين لتثقيف بناتها في المنزل. هذه المامة سريعة لما كان عليه المجتمع في الماضي. ثم تغير المجتمع وتطور لصالح المرأة، ونالت المرأة من الحقوق ما لم تكن تطمع به أو تنشده في الماضي. ونالت أديبة لبنانية استوطنت في مصر، شهرة ذاعت في العالم العربي. انها الاديبة مي صاحبة الصالون المعروف باسمها، والتي وقع في غرامها أو تبادل معها رسائل، أدباء كبار امثال عباس محمود العقاد وجبران خليل جبران. ثم بدأت الاقلام النسائية تتكاثر وتشكل ظاهرة طبيعية في مجتمعاتنا. ولكن المرأة لم تكن قادرة على التعبير بكامل حريتها، واضطر الروائي احسان عبد القدوس أن يكتب بعض قصصه ورواياته على لسان المرأة، وكأنه شاء سد النقص في الادب النسائي المعبر عن أحاسيس المرأة، بما كتبه على لسان بطلاته، في وقت لم تجسر

كاتبة ما علـى التعبير الحر عن أحاسيس وخلجات بنات جنسهـا . وسـار شاعر الانوثة على نفس الدرب ، فدبـج قصائد عديدة علـى لسـان المرأة ، معبرا عن أحاسيسها فى الحب والجنس وعلاقتها بالرجل .

وفى تونس ، ظهر فـى أوائل القرن العشرين مصلح مغبون يدعى الشيخ سالم بن حميدة ، « طبق دعوة تحرير المرأة فى بناته ، وصدع بها فى رسائله ومقالاته ومحاضراته وأشعاره » (1) . ودعا الـى تعليمهـا لتتبوأ الوظـائف الاجتماعية ، ورأى فى تعليم المرأة ، منقذا للشعب من العبودية ومن الجمود . كما تتابعت الدعوات الاصلاحية فى هذا المجال فى أشعار سعيـد أبى بكـر والشابى والهادى المدنـى وغيرهم ، حيث دعوا الـى « وجوب منح المـرأة التونسية تعليما قوميا ومنزليا قبل كـل شىء آخر لتسلم الاجيال ، من بعد من التبعية وتنفض الامة عنها غبار عصور الانحطاط » (2) .

وابتداء من سنة 1956 تحددت ملامح الادب النسائى التونسى علـى أيدى هنـد عزوز وخديجة الشتيوى وبيـة النورى وفتحية مزالـى وفاطمة سليم وحياة بن الشيخ وزبيدة بشير وليلى مامى وفضيلة الشابى وغيرهن . وقـد حصر الاديب البشير بن سلامـة اتجاهات الادب النسائـى التونسـى فـى « الاتجـاه المحافظ ، والاتجاه الواقعـى ، والاتجـاه النسـوى ، والاتجـاه المكتشف للاعمـاق » (3) . وأعتقد أن لمجلة (الفكـر) دورا قياديا فـى تشجيـع المـرأة علـى الكتـابة الادبيـة دون حجـر أو تحفظ . كمـا لمعت أديبات أخريات وصدرت مجموعاتهن القصصية والشعرية فـى السبعينـات والثمانينات . فصدرت قصص عروسية النالوتى (البعـد الخامس) عام 1975 وأشعار فاطمة الدريدى (ضحكات عيـون باكية) عام 1977 ، وقصص نافلـة ذهب (الشمس والاسمنت) عام 1983 ، وقصص بنت البحر (الطفلة انتحرت) عام 1983 وقصص نعيمة الصيد (الزحـف) ، ومجموعتها الابداعيـة (رعشة حلم) عام 1982 . هؤلاء الاديبات وغيرهـن يتنافسن فى الابداع الادبى بحرية تامة ، حتى أن بعض الاديبات تطرفن وكتبن ما لم يشـأ الرجل أن يسطره ، والمثل يتبلور فى كتابات نعيمة الصيد موضوع هذه الدراسة .

---

(1) أحمـد خالد : شخصيـات وتيـارات ـ الدار العربية للكتـاب ـ تونس 1982 ـ ص 189 .
(2) المصدر السابق ـ ص 209 .
(3) البشير بن سلامة : قضايا ـ ص 154 .

وتشاء الصدفة أن أفـرغ مـن اعداد دراسة عن الشاعر السورى محمـد عمران صاحب ديوان (الازرق والاحمر) . وتزامن فراءتى لأشعاره مع قراءتى لقصص وابداعات نعيمة الصيد.فلاحظت سمة مشتركة تجمع بين شاعر سورى وأديبة تونسية ، وهى تعرضهما لمسالة العشق والجنس..وان كان المنحى الذى عبر عنه عمران يختلف عما عبرت عنه نعيمة . فعمران لجأ الـى عقد مزاوجة بين الجنس والمـوت .. « فالازرق يعبر عن الشهوة الجسدية ، التى يتقـن الشاعر طقوسها ٠٠ (الزرقة تدعونى) ٠٠ ويرى فى تلبية نداء الجنس ديدنه الذى عليه يعيش ! . حتى صور لنفسـه دنيا الجنس وقد ارتقت الـى مرتبة الايمان ! . أما الاحمر فلون الـدم والقتـل والدمار الذى يحاصرنـا فى كل مكان . رائحة المـوت تزكم الانوف ، شاعرنا لا يرى فـى دنيانا سوى هذين اللونين اللذين صبغا قصيده ، كأنما هى قصائد الجنـون ، ولا رؤيـة أمامه سوى أن نهرب من الموت الى الجنس ، وان كان الجنس مفضيا فـى النهاية الى الموت أيضا » (4) . أما نعيمة الصيد فتتنـاول الجنس بنظـرة متفـائلة للحياة . لم تنظر اليه تلك النظرة التشاؤمية ، ولم تشأ اقامة علاقة ما بين الجنس والمـوت . وانمـا عبرت عن الجنس واهب الحياة ، فهـى بغريزتها الأنثوية رأت فيه الاخصاب وخلق الاجنة .

السمـة المشتركة بينهما ، أيضـا ، أن محمـد عمران تحرر مـن أوزان الشعر وبحوره وتفعيلاته ولجأ الى المـوسيقى الـداخلية ، عـلى أسـاس أن الصور والاخلية والمعانى ، هى القـادرة عـلى الابـداع الشعـرى . وكـذلك لجأت نعيمة الصيد فى مجموعتها (رعشة حلم) الى مثـل ذلـك ، وأسمت مقطوعاتها (إبداع) . وان كانت الكلمة فضفاضة ويمكن أن تنسحب على كل الاجناس الادبية ، من رواية وقصة قصيرة وشعر ومسرحية .. كلها ينطبـق عليها اسم الابداع الادبى . ولو قلنا (الابداع الفنى) لاتسعت الدائرة لتشمل فنون الموسيقى والسنما والرسم والنحت وما الى ذلك . ولعـل اسـم (نثـر فنى) أكثر دقة فى التعبير عن مثل هذه المقطوعات . وليس فى ذلك تقليـل من شأنه ، فالنثر قد يرقى الى مرتبة لا ترقى اليها القصيدة الجيدة ، طالمـا يحمل المقومات الفنية التى تؤهله للبقاء .

---

(4) مجلة (الموقف الادبى) ـ سبتمبر /اكتوبـر 1985 ـ مقال (محمد عمران شاعر العشق والموت) لحسنى سيد لبيب ـ ص 235 .

الزحف :

في مجموعة قصص (الزحف) ، لم نتبين معالم القصة وحدودها ، بالشكل التقنى وانما هى أقرب الى الخاطرة القصصية . وقد ألغت معالم المكان وعلاقات الاشخاص فيما بينهم . وتعتمد القصص على تصوير الانفعالات والعواطف . وينحصر عالمها فى العلاقة بين المرأة والرجل . ويعتمد هذا التصوير على التجريد ، كأنها ترسم بفرشاة لوحة تشكيلية ، فتهمها الابعاد والظلال فى رسم الاشخاص ، وفى الجو المحيط بهما ، تشارك الطبيعة بألوانها وظلالها فى استكمال عناصر الجمال للصورة . وهى بذلك لا تهمها أية امرأة هذه ؟ . أهى زوجة أم أرملة أم مطلقة ؟. وكذلك بالنسبة للرجل لا تهتم الكاتبة بالعلاقة الشرعية التى تربط المرأة بالرجل ، أقصد قسيمة الزواج ، أو بالعلاقة التى يعرفها المجتمع ، أقصد الصداقة أو الزمالة وما الى ذلك . انما هى علاقات تتستر فى الظلام ، أو هى نشأت بعيدة عن عيون الناس . فلا يهم الكاتبة اذا ما ارتبطت المرأة برجل ، سوى لحظات الصدق التى يستشعرها كلاهما خلال اللقاء . وتأكيدا لخطها القصصى ، ألغت الاسماء واكتفت بأن هذه امرأة وهذا رجل ، كما تجاهلت الروابط الاسرية والاجتماعية ، الا فيما ندر . ولا تعرج على التعريف بصديقة أو غيرها الا لماما ولضرورة الفكرة . ولم نسمع فى قصة من قصصها أن للمرأة أو للرجل أولادا . واختزلت تفاصيل عالمنا وجزئياته ، اختزلت القسمات والملامح ، اختزلت العلاقات والروابط ، ولجأت الى تجريد الصورة وتحييدها من الانتماء الى وضعيات المجتمع والحياة . فقط آمنت بعالم المرأة ، تجوس هذا العالم ، محاولة التعريفَ بأدق التفاصيل ، مغرمة بتصوير لحظات النشوة والمتعة . ولم تتبن أية قضية للمرأة سوى عشقها لرجلها أو فارسها أو سندبادها . فبدت نعيمة الصيد كاتبة جريئة تناصر تحرير المرأة من كل القيود والعوائق . لكنها فى تحديها وجسارتها أوقعت المرأة فى عبودية الجسد . فالمرأة فى قصصها تشتهى الرجل . هذه هى اهتمامات المرأة عندها . ولا تملك سوى الجرأة على التحدى ، وكأن ليس للمرأة مقصد أو غاية غير ذلك .

أما عالمها الخارجى ، فتنظر اليه نظرة كلية ، مختصرة التفاصيل . واتسمت قصصها باحساسها الشاعرى . قد اختصرت-العالم الخارجى ، وتبدى أمام ناظريها بانه (المدينة) . انها حريصة على وصف مشاعر المرأة وأحاسيسها بالنسبة لرجلها ، أما الآخرون فينتمون الى الجانب الآخر من الاهتمام ، وكلهم - فيما عدا رجلها - ينتمون الى (المدينة) . الصورة لرجل وامرأة ، أما الظلال والخلفية ، فللمدينة . وبدت المدينة وقد اختصرت

معالمها ، كمن ينظر اليها من نافذة طائرة ، فلا يقع بصره على تفاصيل . تقرأ فى قصصها مثلا أن « المدينة طائر مبلل بالمطر » (5) . وعندما . ودعت المرأة حبيبها المسافر ، شعرت بآلام الحزن والوحدة ، وبدت المدينة كئيبة « سافر وعشش البوم فى ليل المدينة الكئيبة » (6) . وتصف المدينة فى قصة لها : « المدينة واسعة ٠٠ ولود ٠٠ أبناؤنا يعدون بالآلاف ٠٠ طفت فى أرجائها المبطنة بالقهر .. الوجوه مهمومة .. العيون تدور فى محاجر حزينة فى سرعة ووجل ٠٠ » (7) . كما أن « هذه المدينة لاتنام فى الليل » (8) ٠ و « الليل فى هذه المدينة كئيب ٠٠ يهبط فى غير موعده ٠٠ يطرد الناس من الشوارع ٠٠ والاطفال من الازقة ٠٠ يعودون الى بيوتهم ٠٠ يلتفون حول صينيات العشاء ٠٠ ويبقى الشارع مقفرا الا من بعض السيارات التى تخترق سكونه ٠٠ » (9) . و « أهل هذه المدينة غريبو الاطوار ٠٠ فى الليل يرتدون ملابس الخروج وتبدأ رحلتهم الحالمة بين انفاس العطر ورائحة الكحول المسكرة وأكل الشواء وأنغام الموسيقى والحب أطياف من الاحلام لا تنتهى الا آخر الليل .. » (10) . وتصور لقاء متعة بين امرأة ورجل ، ويفترق الاثنان ، ثم ٠٠ « ابتلعتهما المدينة كما تبتلع كل شيء ٠٠ وضاعا فيها ٠٠ ثم تلاشى كل منهما فى طريق ٠٠» (11) ٠ وفى قصة (نزهة فى شتاء المدينة) ٠٠ تتنزه امرأة مع رجل بعد خصومة تنتهى بعتاب ، وأرادت أن تستريح . تفاجأ بالفقر ينتشر فى ارجاء المدينة ، فتكتئب ، وتحس بالقهر . يطلب منها أن تنسى وتضحك لكنها لا تنسى . نفس الشيء نجده فى قصة (سهرة) حيث تتجه المرأة مع صديقة لها الى (صحارى سيتى) ، وهناك يلتقون بالاعيان والاغنياء الكسالى ، بينما رأت فى هذه المدينة غريبة الاطوار ــ كما أسمتها ــ الفقراء يكدحون ويعرقون ، رأت الازقة القذرة والمرضى من الفاقة والعوز . أما قصتها (ليالى

---

(5) الزحف (قصص) صدرت عن شركة الربيعان للنشر والتوزيع بالكويت 1982 ــ ص 3 .
(6) المصدر السابق ــ ص 99 .
(7) المصدر السابق ــ ص 89 .
(8) المصدر السابق ــ ص 90 .
(9) المصدر السابق ــ ص 65 .
(10) المصدر السابق ــ ص ص 57 .
(11) المصدر السابق ــ ص 39 .

المدينة الكئيبة) . فعن امرأة تاثرت بما روته لها صديقتها .. أنها شاهدته في حفل متأبطا امرأة أخرى . فأحست بالغيرة والحقد . فالغت لقاءها به لتوديعه قبل سفره . لكنها لم تتمالك ، فذهبت اليه معتذرة وودعته ، وعادت تعيش في وحدتها ! فالمدينة لا طعم لها ، اذا ما افتقدت المرأة رجلها ولان نعيمة الصيد قيروانية ، فانها تفخر بالانتماء الى القيروان ، تلك المدينة التاريخية ، التى أسسها عقبة بن نافع . فتكتب قصة (الدفء) وهي صورة وصفية لامرأة تستدعي فيها صورة القائد الذى يشعرها بالدفء ، وتتمسك بمصاحبته وهى تتجول فى طرقات المدينة . والدفء هنا يعنى العراقة والاصالة .

وينحصر عالم نعيمة الصيد في امرأة ورجل غارقين في لذة الجنس . حتى أنها لا تهتم الا بما يخص امرأة تعشق رجلا ، أيا كانت صفته ، المهم أنه كل عالمها ، تتحدى به الأخرين ، المنتمين الى المدينة في الجانب الآخر من الصورة . وقد تواتيها لحظات تنتقد فيها حياة المدينة ، بما ترزح به من تناقضات . تصور المرأة مخلوقا ناقصا (12) لا تكتمل أو تشعر بكيانها وذاتيتها الا من خلال المتعة والحب .

ولانه عالم المتعة الجسدية، فان زمن القصة ينحصر فى الليل، وتأتى تباشير الصبح بتغيير الاحوال . ففى الصباح ، قد تسافر العاشقة ، أو ينجلى الحلم ، أو يسافر العاشق . ان فكرة القصة محدودة بقضاء الليلة حتى ينبلج صبح يوم جديد . في قصة (لقاء) امرأة ورجل في أقصى درجات النشوة . لقاء جسدى و « امتاع حاد يصل الى لذة الاشباع . وراحت في غيبوبة المتعة اللذيذة » (13) . وهكذا قصصها تصور لحظة اللقاء الجسدى، كأن عالمنا محصور فى امرأة ورجل ملتصقين مديرين ظهريهما الى العالم . وتنتهى اللذة فى ثوان ويفترق الاثنان ، ويمضى كل منهما فى طريق وابتلعتهما المدينة كما تبتلع كل شيء .. وضاعا فيها .. ثم تلاشى كل منهما فى طريق .. (14) .

---

(12) للاستاذ مصطفى الفارسى رأى مغاير ، اذ قال فى مقدمة (الزحف) « الذكر النقص والانثى الكمال .. الذكر الزيف والانثى الحقيقة .. ولولا هذا التناقض بين العنصرين لما كان الحب ولما كان الالم ولما كان الموت » ص 7 .

(13) الزحف ــ 36 .

(14) المصدر السابق ــ ص 39 .

والغيرة من المرأة الاخرى ، أو الانتقام من الرجـل ، يدفع المرأة الـى أن تثبت وجودها كأنثى ، فتنجرف مع رجلها تشبع لذتها وترضيه . تثبت أنها أحلى أنثى وأقدر على العطاء الجنسى . ان قوة المرأة تظهر فى تفوقها كأنثى فى قصة (الزحف) ، قصدت أن تمتعه حتى ينسى (المرأة الاخرى) ، فيعلن لهـا أنها ألذ مـن عرف من النساء وتصف الكاتبة ، فـى اباحية مكشوفـة ، تفاصيل جنسية تتبل بها قصتهـا . ثم تودعه ، اذ هـى راحلة فـى الغد !. وتحكى قصة (الضياع) تجربة عشق امرأة لرجل ، وتكره رجلا آخر وتمقتـه تصف التجربة بحس الانثـى التـى ترى الجماع لا يفيد الا بالعشق وليس عملية بيولوجية رتيبة . ولكن تتوتر مشاعر المرأة ، لان علاقتهـا لا تمـت للشرعية بصلة ! . انه الضياع الذى غرقت فيه بطلات قصصها ، وانه اثبات الوجود للانثى أن تعيش لحظات الصدق بعيدا عن زيف المجتمع ونفاقه . فى قصة (همسة فى سمع الزمان) ، مناجـاة امرأة لحبيبها فتصرخ من أعماقها : أنا أنثى . ولا تملك الا أن تسعد فـى جزر الحلم الصاخبـة ٠٠ « وانتصبت إلاها فيها .. وكنت رب المعبد وكنت أنا القربان » (I5) . انـه التفـانى فى العشق ، انه الاخلاص والوفاء للحبيب . هذا ، واذا كان لى الحق فى اختيار قصة اعجبتنى من قصص المجموعة ، فانى أختار قصة (الى سندبادى) التـى حققت مستوى من الجودة والاتقان ، فتفوقـت فيها الكاتبة وبرعت . والقصة عن امرأة أحبت رجلا واعتبرته كل عالمها . تخطت العوائق والتقاليد وأحبته تحدت به الدنيا . وقصت شعرها حتى لا يطمع فى الاحتماء بظلـه أحد بعده وتناديه بـ « سندبادي » .

(يتبـع)

حسني سيد لبيب

(القـاهرة)

حَديث الموْت

شعر: حمادي الباجي

صَرَخَ المَوْتُ في سُكُون الدَّيَاجِي   صَرْخَةَ الجِنِّ فِي خَلاَءٍ سَحِيقِ
وَتَرَاءَتْ أَشْبَاحُهُ الحُمْرُ حَوْلِي   فَوْقَ جُنْحٍ من السَّرَابِ رَقِيقِ
فَأَرَانِي فِي غَشْيَةَ الحُلم أَبْدُو   وَاجِمِ الصَّوْتِ في ذُهُول عَمِيقِ
وَكَأَنِّي مَعَ الجَمَاجِمِ أَدْعُو   هَا بِأَوْهَامِ عَابِدٍ إِغْرِيقِي
أَنْطِقِي يَا هَيَاكِلَ الرُّوحِ إِنِّي   لِحَدِيثِ السَّمَاءِ جِدّ مَشُوق
فِي دَمِي لَهْفَةُ الحَنِينِ إِلَيْهَا   تَتَلَظَّى كَشُعْلَةٍ مِنْ حَرِيقِ
وَأَنَا فِي طَرِيقِهَا غَيْرَ أَنِّـي   استُ أَدْرِي مَا خَلْفَ هذا الطريقِ
رَغْمَ أَنِّي مَعَ انْزِعَاجِي أَرَانِي   أَتَغَنَّى بِكُلِّ لحْنٍ رَشِيـق
وَأُجَارِي الغَدَاةَ في الأُفُقِ المُمْ   تَدّ وَالشَّمْس في صَفَاءٍ بَرِيقِ
وَعَذَارَى الغُرُوب في الشَّفَقِ الوَرْ   دِيِّ يَسْخَرْنَ مِنْ غِنَاءِ الشُّرُوقِ
أَغَدًا تَنْضُبُ الكُؤُوس ؟ وَتَخْبُو   بَهْجَةُ النُّورِ في ظَلاَمٍ عَمِيقٍ ؟
وَيَمُوتُ الإِحساسُ في المُهجِ الحَـــرى؟ وَيَفْنَى رُوحُ الجَمَالِ الأَنِيقِ
عَبَثًا أَرْسمُ الخَوَاطِرَ في الحُسْـــن ! وَأَسْمُو لكُلِّ مَعْنًى دَقِيقٍ !
عَبَثًا تَهْزَجُ العَصَافِيرُ فِي الرَّوْ   ض ! وَتَشْدُو لكلِّ غُصْنٍ وَرِيقٍ !
وَعُيُونُ المَنُونِ تَرْصُدُ نَجْوَا   هَا وَتَسْعَى إِلَى الفَنَاءِ المَحِيقِ !

* * *

أَيُّهَا المَوْتُ مَا وَرَاءَكَ .. لَوْ تَسْـ　مَحُ لي بُرْهَةً فَتَجْلُو السِّتَارَا ؟
وَتُرِينِي قَرَارَةَ العَدَمِ الصَّـــا　مِت حَتَّى أَسْتَكْشِفَ الأَسْرَارَا
أَنْتَ لُغْزٌ لَدَى العُقُولِ عَصِيٌّ　ضَلَّ فِي كُنْهِهِ الوُجُودُ وَحَا
أَحَيَاةٌ جَدِيدَةٌ ؟ وَطُمُوحٌ　يَسْتَفِزُّ الأَرْوَاحَ وَالأَفْكَارَا ؟
أَمْ سُكُونٌ فِي اللاَّنِهَايَةِ أَعْمَى　مُسْتَمَدٌّ مِنَ الفَنَاءِ شِعَارَا ؟
سَاوَرَتْنِي الظُّنُونُ فِيكَ وَمَا كُنْـ　تُ بِآلاَءِ خَالِقِي أَتَمَـــارَى
فَهْوَ حَيٌّ قَدْ أَبْدَعَ الكَوْنَ حَيًّا　يَمْلأُ العَيْنَ مِنْ سَنَاهُ انْبِهَارَا
كَيْفَ يَرْضَى بِأَنْ يَرَى كَوْنَهُ السا　مِي فِي قَبْضَةِ الرَّدَى مُنْهَارَا
مَا عَسَانِي أَقُولُهُ وَأَنَا فِــــي　ثَوْرَةِ الشَّكِّ أَصْطَلِي اليَوْمَ نَارَا ؟
أَكْبَرُ النَّائِبَاتِ حَيْرَةُ عَقْــلِ　فَيْلَسُوفٍ يُجَادِلُ الأَقْدَارَا
أَيُّهَا المَوْتُ أَيُّهَا الصَّنَمُ الأَخْـ　رَسُ لا تُعْرِضَنَّ عَنِّي ازْوِرَارَا
أَهَاتِ مَا شِئْتَ مِنْ حَدِيثٍ عَنِ البَعْـ　ثِ وَمَا بَعْدَهُ وَلاَ تَتَوَارَى
كَيْفَ بِي عِنْدَمَا أَصِيرُ إِلَى مَخْـ　دَعِكَ الأَسْوَدِ الرَّهِيبِ نِثَارًا ! ؟
أَأَرَى فِيكَ مِنْ وُجُودِي وُجُودًا؟　وَأُلاَقِي لَدَيْكَ دَارًا وَجَارًا ؟
أَمْ بِوَادِيكَ فِي الفَنَا أَتَلاَشَى؟　وَمَعَ الرِّيحِ سَوْفَ أَغْدُو غُبَارًا ؟

حمادي الباجي

مجموعات شعرية تونسية

امتاز عليك باحزاني	يوسف رزوقه
كلمات للحب والوطن	محمد المهدي بن نصيب
النخل إذ تشهق	محمد الطاهر الحضري
يتشكل الغيم في رحم المدينة	الهادي دانيال

الأدب في الجريد قديماً وحديثاً

بقلم: الشاذلي الساكر

① في عصر الولاة والعصر الاغلبي :

يقول المؤرخ ابن الشباط : ان الجريد هو أول المناطق بالشمال الافـريقي التي شملها الفتح الاسلامي بسبب متاخمتها للصحراء ٠ وبان عقبة ابن نافع سلك الطريق الصحراوي ، وأهم عقده ، هي توزر ، لكي يدخـل تـونس ٠ وبعد الفتح مباشرة استوطنت عدة عائلات عربية الجريد منها المصاعبة (آل مصعب ابن الزبير) وكذلك جماعة كبيرة من الجند العراقي ٠ ومن هنا كانت الجريد من الجهات الاولى بافريقية التي احتكت بالثقافة العربية ٠ وهذا ما يفسر وجود العديد من العلماء والفقهاء في القرن الثاني للهجرة ٠ وما جاءت الدولة الاغلبية حتى تعربت الحسن تعرب ونبغ فيها ثلة من المحدثين من أمثال احمد بن ملول التنوخي ، الذى قال عنه ابن فرحون فى « الديباج المذهب » (ص 36) :

«احمد بن ملول ، تنوخي ، يكنى بأبى بكر ٠ من أهل توزر ، سمـع من سحنون ، ورحل فيطلب الحديث ، ثقة مأمون ٠ سمع منه ناس كثيـر من الاعيان كالاكنافي وغيره كان عالما حسن المناظرة ٠ وناظر محمد بن الحكم بمصر ٠ والف تآليف كثيرة» ٠

وخالد بن نصر الذى قال عنه عياض فى «المدارك» ما يلي :

«خالد بن نصر من أهل قسطيلية سمع من سحنون وأصبـغ ابن الفـرج وغيرهما ، وتحدث عنه صاحب الحلل (ص 205) وابو العرب التميمي» ٠

وعبد الرحمان الكناني ، الذى قال عنه عياض فى المدارك :

« أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان الكناني ـ رحمه الله ـ من أهل توزر ، سمع من سحنون ورحل الى المشرق فى طلب الحديث» ٠

وأبو الحسن علي بن اسماعيل القرشاني ، ولد في اواخر القرن الثاني ه وتعلم بتوزر ثم واصل تعلمه بالقيروان ، أخذ عن سحنون ، وعن أصبغ بن الفرج وعن سعيد بن أسد بن موسى وغيرهم ٠

وسمع منه احمد بن أبي سليمان وموسى بن عبد الرحمان وجماعة غيرهما وذهب الى الحج فكانت له دروس وطلبة بالمشرق ثم قفل راجعا فتوفي في رجوعه من الحج سنة 266 (مراجعه أبو العرب التميمي) ٠

② في العصر الفاطمي :

تميزت هذه الفترة تاريخيا ، بثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد (880 م) ، الذى كان مسكنه (بقلعة سدادة) من (تقيوس) وأصله من بني ويسيان توزر (كما ذكره الرقيق) خالط النكارية فمال الى مذهبهم واخذ عن أبي عميرة بتاهرت (وهو شيخ هذه البدعة) ولقى عمار الاعمى الصفرى النكرى فلقنه من مذهبهم الكثير ٠ وبعدها شاع عنه التشهير بالفاطميين وعزمه عن الخروج عنهم فهدر دمه (سنة 922 م) ٠ وبدأ فعلا في تحقيق هدفه ، منظما حكومة بالاوراس ٠ وفي سنة (943 م) استولى على تبسة ومجانة ومرجانة ثم استولى على الجريد في السنة الموالية ، وبعدها استولى على القيروان ٠ ثم توجه الى المهدية قاعدة الملك فهزم وقتل القائد الفاطمي (ميسور) وبعد حصار طويل وقتال شديد كانت الدائرة على أبي يزيد ٠ وتم قتله وسلخ وما زال به رمق من حياة وكان ذلك سنة (947 م) ٠ وواصل ابنه الفضل القتال في جبال الاوراس وفي ناحية الجريد الى ان قتل بدوره ٠

لكن وبالرغم من هذه الاضطرابات ، فان للجريد ضلعا في انتشار الاسلام في الساحل الافريقي وفي السودان ٠ فقد لعب دورا كبيرا في تنظيم قوافل الصحراء ، للحج وللتجارة وللفتح ولجلب القبائل العربية ٠ وكانت توزر في هذه الحقبة هي قاعدة حكم للفاطميين تمتد الى حد خط الاستواء ٠ لكن العلوم والاداب لم تزدهر في هذه الفترة ٠ والاعلام كانت نادرة مع بعض الاستثناءات منها سحنون بن أحمد التنوخي ، الذى قال عنه عياض في المدارك (ص 107) :

« سحنون بن أحمد التنوخي ـ صليبية (اى عربي أصيل) تقدم ذكر أبيه ٠ من أهل قسطيلية وعلمائها مولده سنة 243 هـ ٠ سمع من أبيه ٠ وحدث عنه عبد الله أبو محمد بن أبي يزيد القيرواني ، وأبو محمد ابن أبي هاشم وجماعة

وكان أبو الفضل الممسى يقول : (إنما فى نواحى افريقية اربعة رجال احدهم سحنون هذا بقسطيلية وذلك من فضله وورعه) • قال ابو بكر المالكى فى رياض النفوس : (كان شيخا صالحا فاضلا فقيها ورعا مشهورا وكان صعبا فى الاجازة توفى سنة 343 هـ • بتوزر» •

③ **فى العصر الصنهاجى :**

وهو العصر الذهبى للابداع العلمى والادبى والازدهار الحضارى ببلد الجريد •

فى هذه الحقبة التاريخية رضخ الجريد للحماديين وهم فرع من صنهاجة انشقوا عن المهدية وكونوا مملكة مستقلة بالجزائر فى قلعة بنى حماد أولا ثم بمدينة بجاية • ونصبوا واليا عنهم بتوزر يسمى ابن مروان حاول الانفصال عنهم ، عندما آلت الدولة الى يحيى ابن العزيز الحمادى ، لكنه لم ينجح فى ذلك وتم القبض عليه من طرف مطرف بن علي بن حمدون (كما ذكره ابن خلدون) •

ثم رضخ الجريد لبنى الرند ، بعد أن ضعف شأن الدولة الصنهاجية ، وتوزعت البلاد الى دويلات طوائف • وكان عبد الله بن الرند رأس هذه الدويلة عاملا بقفصة لصنهاجة خلع الامتثال من عنقه سنة 445 هـ • وبايعته توزر وسائر بلاد الجريد • وتواصل حكمهم الى سنة 554 هـ ، السنة التى تغلب فيها عليهم عبد المؤمن بن علي الموحدى •

وصف لنا الادريسى توزر الصنهاجية فقال «••• ومن باغاى الى مدينة قسطيلية (وهى توزر) مراحل ولها سور حصين ، وبها نخل كثير جدا وثمرها كثير يعم بلاد افريقية ، وبها الاترنج الكبير الطيب • وأكثر الفواكه التى بها فى حال معتدلة وبقولها كثيرة موجودة متناهية فى الكثرة والجودة وماؤها غير طيب ولا مر ، وسعر الطعام (القمح) بها فى أكثر الاوقات غال لانه يجلب اليها • وزروع الحنطة والشعير بها قليل يسير •••» •

ووصفها كذلك الرحالة الجغرافى البكرى فقال «اما قسطيلية (الجريد) فان بلادها توزر والحامة ونفطة ، وتوزر هى امها وهى مدينة حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل والبساتين ولها سواد عظيم وهى أكثر بلاد افريقيا

تمرا ويخرج منها فى أكثر الايام الف بعير موفرة تمرا ... لا يعلم فى بلاد مثل اترنجها جلالاوحلاو ة وعظما ، وجباية قسطيلية 200.000 دينار (ذهبا)».

وقد نبغ فى هذه الفترة الكثير من الفقهاء والمؤرخين والادباء ، منهم ، ابو عمرو عثمان بن أبى القاسم عبد الرحمان بن حجاج ولد فى منتصف القرن الرابع وتوفي فى القرن الخامس . وكان مؤرخا وضع العديد من الكتب فى تاريخ الجريد . وأبو حفص عمر التوزرى من المحدثين فى القرن الخامس قرأ على أبى علي الصدفى . وأبو الحسن علي بن التليوسى ، كان فقيها وشاعرا . والكاتب ابو علي الحسن بن ابراهيم التوزرى وهو الذى وصف توزر بالقصيد المشهور (كامل) :

خير البلاد لمن اتاها تـوزر
يا حبذا ذاك الجنان الاخضر

وأبو زكريا يحيى بن علي زكريا الشقراطسى ، كان فقيها اخذ عن عبد الله بن أبى زيد ، وكان اديبا متبحرا .

وأبو الفضل النحوي التوزري ، ولد بتوزر سنة (434) هـ وترعرع بها . درس بالجامع الكبير (جامع القصر) عن ابى زكريا يحيى الشقراطسى ، ثم درس بصفاقس عن الامام علي اللخمى وأخذ عنه صحيح البخارى (كما قال ابن الآبار) كما أخذ عنه «التبصرة» . وكان علم اللخمى كله فى كتابه هذا . قال له اللخمى ، تريد أن تحملنى فى كفك الى المغرب وأخير درسا بالمهدية . وأخذ عن الامام المازرى ، ثم اشتغل بالتدريس فى العديد من الاماكن منها ، سجلماسة وفاس وبجاية عاصمة بنى حماد آنذاك . وتخرج عنه علماء افذاذ منهم محمد بن الرماسة رئيس المفتين بفاس والاخوان الفقيهان ابو بكر ومحمد ابنا مخلوف بن خلف الله والفقيه ابو عمران موسى بن حماد الصنهاجي وعلي حرزهم شيخ المتصوفة الكبير شعيب أبو مدين دفين تلمسان .

وعندما افتى فقهاء المغرب بحرق كتاب الاحياء واذن سلطان المرابطين بذلك انتصر ابو الفضل للغزالى ودافع عنه دفاعا مستميتا وكتب للسلطان مفتيا بعدم لزوم ذلك ، ونسخ الاجزاء ثلاثين جزءا بخطه يقوم كل يوم فى رمضان بنسخ جزء قائلا وددت انى لم أنظر فى عمرى سواه ، وفى آخر المطاف انتصر على الفقهاء المذكورين . قال ابن الابار عن ابى الفضل النحوى « كان عارفا

باصول الدين والفقه يميل الى النظر والاجتهاد وله تآليف» وقال احمد الغبريني عنه فى كتابه «عنوان الدراية فى تراجم علماء بجاية» «كان من العلماء العاملين وعلى سنن الصالحين مجاب الدعوة حاضرا مع الله فى غالب امره له اعتقاد تام باحياء الغزالى وقال عنه عياض «... كان من أهل العلم والفضل شديد الخوف من الله غالب حاله الحضور معه تعالى لا يقبل من أحد شيئا انما يأكل ما يأتيه من توزر..» وقال عنه القاضى ابن حماد : «كان أبو الفضل ببلادنا كالغزالى فى العراق علما وعملا» .

وأشهر شعره قصيدته المنفرجة التى مطلعها :

اشتدى ازمة تنفرج قد آذن ليلك بالبلج

والتى قام بشرحها ومعارضتها وتخميسها كثيرون فى طليعتهم ابن الشباط وأبو عبد الله محمد بن أبى القاسم .

وتوفي أبو الفضل بمدينة بجاية فى العام ١١١٩ م .

عبد الله ابن أبى زكريا يحيى بن على الشقراطسى ولد بتوزر وقام والده أبو زكرياء ـ سالف الذكر الذى كان متبحرا فى كل علوم زمانه حاذقا لها عارفا بها ـ بتربيته أحسن تربية .

وأبو زكريا هذا هو الذى قال عنه الفقيه عبد الله ابن أبى زيد القيروانى . «... ولقد كان لكم فيما بين لكم من النصيحة صاحبنا أبو زكريا يحيى بن على حفظه الله كفاية بالغة فلا ينبغى لكم أن تتخذوا عن أبى زكريا بدلا ، ولا تبغوا عنه حولا فقد جعل الله فيه من الخير والفهم ما يسعكم واوسع منكم أعاذكم الله من فتنة خفيت عنكم ...» وعندما بلغ عبد الله أشده قصد القيروان لانماء معارفه فتعلم عن أكبر علماء ذلك العصر منهم أبو بكر بن عبد الرحمان وأبو محمد عبد الخالق الصقلى ، وأبو الطيب عبد المنعم الكندى وأبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيورى ، وأبو عمران الفاسى وأبو حفص العطار ، واقام اديبنا بالقيروان الى سنة 429 هـ ، وبعدها ارتحل فى جولة طويلة نحو الشرق مارا بمكة لاداء فريضة الحج . وقد استفاد من هذه الرحلة افادة جمة وعند زيارته الى مصر انضم الى الجيوش المصرية وشارك فى حرب ضد النصارى . ولما رجع الى توزر قام بالافتاء وبالتدريس بالجامع

الكبير (جامع القصر) ٠ ولا بد هنا من بسطة تاريخية موجزة لهذا الجامع العظيم الذى أشع اشعاعا لا مثيل له سوى اشعاع كبار الجوامع كجامع الزيتونة وجامع القيروان وجامع الازهر وجامع القرويين ، كان هذا الجامع كنيسة ملوكية كبرى مقرا لعدة أساقفة كاثولكيين ولواحد دوناتوسى ، ومن أشهر هؤلاء بنياتوس واسيليكوس الاسقف الذى راسله القديس اوغستينوس رسالة رقم 196 يحذره فيها من يهود توزر ٠ وكذلك وبتوس وفلورا نتينوس٠ وبعد الفتح الاسلامى حور المسلمون هذه الكنيسة وجعلوا منها جامعا وأضافوا اليه صومعة مشهورة (فى العهد الصنهاجى) ذكر الفقيه عثمان بن الحجاج فى تاريخه : «ان ابتداء الصومعة بجامع توزر كان سنة 412 هـ وتمامها سنة 442 هـ وقد اختصت باربع قباب جملت أعلاها وكملت حلاها كأنها عرائس جليت على منصة ، وحبيت من بدائع الحسن بأوفر حجة ، وبها من غرائب البنيان وبدائع الاتقان ما لا يقف عليه الطرف ، ويقصر عنه الوصف ويقول كل من رآها ممن جاء شرقا وغربا بعد أن قرب : « ما رأيت مثلها ولا عاينت فى الاقطار شكلها» ٠

قلنا : ان عبد الله تصدر للافتاء والتدريس فى الجامع المذكور الى آخر حياته التى انتهت فى الثامن من شهر ربيع الاول سنة 466 هـ ٠ ودفن قرب والده فى مكان يعرف باسمهما ، وقد ذكر العياشى أنه زار قبرهما فى عام 1160هـ : (ودخلت الى البلد القديم من توزر وزرت قبر الامام الشقراطسى وقبر ولده ٠٠٠) وقد تخرج عن يحيى الشقراطسى الكثير من الاعلام ٠

اشتهر صاحبنا بقصيدته المبتكرة فى مدح الرسول وهى المعروفة بالشقراطسية والتى انشدها بالمدينة عند قبر الرسول والتى طالعها :

الحمد لله منا باعث الرسل   هدى باحمد منا احمد السبل

وقد اعتنى بها الكثير من الشعراء فمن مشطر ومخمس ومعشر وموشح ومفسر ، وقد جاراها بعضهم فنظموا القصائد فى بحرها وفى قافيتها وفي معناها . وأشهر من نسج على منوالها هو الشيخ البوصيرى في بردته وذلك بعد قرنين ٠ وقد كثرت شروح هذه القصيدة الى درجة أن الشارح الواحد يشرحها عدة شروح تصل الى ثلاثة فى بعض الاحيان . وقد وشحها ابن زنون الشاعر وشطرها ابراهيم بن سالم التوزرى وخمسها ابن الشباط وأبو بكر محمد بن يوسف حبيش وأبو عبد الله المصرى المعروف بابن عربهة وعثمان بن عتيق المهدوى وأبو سليمان أحمد العبسى العامورى والشيخ

محمد النيفر • وشرحها ابن الشباط ثلاثة شروح كما شرحها العلامة ابن غازي فى عشر مجلدات كما ذكره صاحب «العقد النفيس» الذى ذكر أيضا أن ابن جماعة شرحها فى مجلد واحد • وشرحها أبو الحسن بن عبد الرحمان ابن عظيمة الاشبيلي كما جاء فى نفح الطيب الجزء الاول • وذكر فى معالم الايمان لابن ناجي : أن أبا اسحاق ابراهيم ابن يوسف ابن عبد الملك بن عوانة وضع تاليفا على الشقراطسية فى ثلاثة أسفار ، وذكر فى البستان أن الشيخ احمد بن محمد بن ابى بكر ابن مرزوق التلمساني المتوفى فى العام 842 هـ وضع لها شرحا سماه «المفاتيح القرطاسية فى شرح القصيدة الشقراطسية» • وفى شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ان ابن شامة وضع شرحا لها • كما شرحها ابو عبد الله محمد المحجوب •

وقد قال عبد الله الشقراطسي فى جميع أغراض الشعر من فخر ورثاء ومديح وغزل ونسيب ومن أشهر قصائده تلك التي منها :

سلوني عن الارزاء انى شقيقها وعندى من انبائهن الغرائب

له من التصانيف :

أ) «الاعلام فى معجزات خير الانام» •

ب) فضائل الصحابة •

ج) تعليق على مسائل من المدونة لسحنون •

د) ديوان شعر •

ابن الكردبوس ، ولد بتوزر فى أواسط القرن الخامس الهجري ومن المستقرب أنه توفي سنة 500 هـ• درس بالكتاتيب القرآنية ثم بجامع القصر ، من أساتذته أبو الطاهر السلفي وهو من كبار المحدثين •

ترك ابن الكردبوس عدة مؤلفات قيمة ضاعت كلها باستثناء كتابه المسمى «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء» • وقد ساح كثيرا لاخذ العلم بالخصوص • ومكث مدة بتونس للتدريس ثم عاد الى توزر حيث توفي •

أبو علي النفطي ولد بنفطة فى العام 496 هـ وتوفي فيها فى العام 568 هـ • وهو متصوف وشاعر وسني متشدد قاوم كل البدع التى ظهرت فى زمانه

وجذر العمل بالسنة والاجماع . قال عنه عيسى بن سلامة بن عيسى : « إن أبا علي النفطي معروف بالزهد والصلاح • وله كلام رفيع عال في التصوف يدل على رفيع مقامه • وقد ذكرت جله في كتاب البدر المنير فانظره تعلم منه رفيع درجته رضى الله عنه » •

أخذ صاحبنا التصوف عن الشيخ البسكرى وله أشعار كثيرة ذات طابع صوفي ذكرها هو في ديوانه الذى أوله (دعا موسى نجيك يا عمادى) • وقد تعرض في ديوانه الى كل أغراض الشعر . ومن شعره قوله (من الطويل) :

أما آن من صبح الرشاد تنفس ؟ وحتى متى ليل الظلام معسعس
تراني أرى بحر الهدى متعرضا فينزع للترحال صب معرس
وما حدرى الا شعوب مغيرة وما لاح اصباح وما شط حندس

④ في العصر الحفصي :

تميز هذا العصر بدولة بني يملول التى حكمت بلاد الجريد قرابة الخمسة قرون ونصف القرن وبلغ عدد ملوكها قرابة الاحد عشر •

يقول ابن خلدون : إن هذه العائلة ـ كما تقول هي عن نفسها ـ عربية الاصل وتنوخية النسب وانها نزحت الى توزر من أيام الفتح الاسلامى • وليس من المستبعد أن تكون هذه العائلة بربرية الاصل لان لفظة يملول في اللغة البربرية معناها الابيض •

وزعيم هذه العائلة وكبيرها هو احمد بن يملول الذى عمل جاهدا على اكتساح كل المناطق المجاورة له ، وقد ساعده على ذلك كما يقول ابن خلدون ، اتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله منها بأم القرى من قطره • وقد سعى به الى السلطان أبى حفص قائد معسكره محمد الفشارى ، فصودر الزعيم اليملولى في كل كسبه وماله • واثر هذه المصادرة قصد احمد بن يملول حاضرة تونس مستعملا دهاءه وما بقى من ماله ، في دواوين الامراء والوزراء لارجاع نفوذه • حتى اسندت له الحكومة خطة بديوان البحر بتونس لجباية الاعشار من تجار دار الحرب فجمع من هذه الوظيفة المال الكثير • فما كان من حاجب السلطان زكريا اللحياني الا أن قبض عليه وصادر ماله •

فى هذه الفترة بدا الارهاق يظهر على الدولة الحفصية ، وأصبحت غير قادرة على ادارة الجهات النائية عن دار ملكها • فاستغل ابن يملول ذلك ورجع الى توزر ، وتحالف مع قبيلة أبى الليل التى كانت من أكبر قبائل البدو مدعما بذلك سلطانه . وبموته خلفه ابنه يحيى ، وكان مستبدا بالامر غير محمود السيرة ولا محبوبا من رعاياه ولا من عائلته . وبقي فى الامر خمس سنوات قضى نحبه فيها • فأخذ مكانه اخوه محمد ابن يملول فاحسن سياسته واجاد تسيير البلاد فالتفت حوله قبائل البدو وازدهر العمران ونقصت الاضطرابات وفى اثناء ولايته هاجمه القائد محمد بن الحكيم وتقبل منه طاعته للسلطان الحفصي وتوفي محمد اليملولى بتوزر فى العام 744 هـ فقام بالامر بعده ابنه عبد الله ، لكن الاحوال لم تستقر لان عمه ابا زيد أحمد بن يملول قام فى وجهه مدعيا انه أحق بالامر منه وقتل ابن أخيه ، فثارت ثائرة العامة فى وجه أبى زيد ، واشتد الصراع وتواصل ووقع الاستنجاد بأخيه ، وكان سجينا بسجن السلطان بتونس ، وبعد تدخلات واعطاء مواثيق أخرج من السجن وقصد توزر يجمع فى طريقه كل الغاضبين والطامعين وهجم على توزر وافتكها من أخيه وقتله ومكث يسيطر على الاحداث الى سنة 745 هـ حيث هجم أبو بكر الحفصي على توزر ، فهرب الى بسكرة ثم عاد منها بعد سنة لوحشة وقعت بينه وبين صاحبها ومات بالمكان المعروف بحصون وادى بنى يملول فى عام 746 هـ وهو العام الذى مات فيه أبو حفص الثانى ، وخلفه ابنه أبو العباسَ احمد الذى كان وقتئذ متوليا أمر الجريد ، رجع ابو العباس الى تونس بصفته السلطان الجديد ، وبرجوعه خلا الجو لانصار بنى يملول فنصبوا عليهم طفلا يملوليا جلبوه من بسكرة تحميه قبيلة أولاد مهلهل من الكعوب •

قال ابن خلدون :

«وأصبح يحيى بن محمد يملول ينزع الى محاكاة الملوك فى الشارة والحجاب واتخاذ الآلة والبيت المعمور واقتعاد الاريكة وخطاب الملوك والاكل فى أوان من ذهب وفسح للمجون والعكوف على اللذات مجالا ••• وفتح على رعيته باب الجور ••• ولما تم الامر لابى العباس احمد الحفصى هجم على قفصة ومثل بأهلها أشنع تمثيل ، وعندما بلغ يحيى بن يملول هرب الى بسكرة • ودخل السلطان الحفصى توزر ونهبها وعقد لابنه المنصور الحفصى على توزر • وقد مات يحيى بن يملول فى تلك الفترة وترك ابنا هجم على توزر سنة782هـ مصحوبا بقبيلة بنى مرداس ففر ابن السلطان الحفصى ناجيا بنفسه. ورجعت توزر الى بنى يملول • ولما بلغ الخبر السلطان أبو العباس قصد

توزر وحاصرها وبعد قتال شديد افتكها وكان ذلك سنة 784 هـ • وأثناء ذلك هرب أبو يحيى اليملولي الى بسكرة والتجأ الى صاحبها ، لكن السلطان الحفصي ذهب الى بسكرة وقاتلها قصد القضاء عليها لعدم اخلاصها • وبعد قتال تصالحا وكان ذلك في سنة 786هـ، السنة التي زالت فيها الدولة اليملولية الى الابد•••

وقد نبغ في هذه الفترة الكثير من العلماء والادباء منهم •

أبو زيد عبد الرحمان بن علي التوزري شهر ابن الصائغ ، وهو من مواليد أواخر القرن السادس بمدينة توزر ، حيث تعلم ، ثم رحل الى تونس وتخرج على خيرة أشياخها • وفي يوم الاربعاء 2 صفر من العام 646 هـ عزل الامير أبو زكريا الحفصي عبد الرحمان ابن نفيس عن قضاء تونس وعوضه بابن الصائغ لما عرف عنه من علم وادب وفضل وبقي على خطته هذه الى العام 657 • وتوفي صاحبنا في عام 659 هـ بمدينة تونس •

ابو محمد عبد الله بن يعقوب ، من علماء وشعراء توزر تحدث عنه التجاني، توفي بتوزر يوم 7 جمادى الاخرى سنة 702 هـ ، وضريحه لا يزال معروفا الى الآن •

ابن الشباط ، هو محمد بن علي بن محمد بن عمر بن الشباط ، ولد ليلة الخميس في عشرين من شعبان سنة 618 هـ بمدينة قسنطينة عندما سافر أبوه اليها قصد التجارة . وعندما بلغ أربع سنين رجع مع والديه الى توزر فترعرع بها ودرس في جامع القصر كل العلوم المتداولة في زمانه عن والده وعن فطاحل علمائها من أمثال الفقيه أبي عبد الله محمد بن شمدون وأبي عبد الله الطولقي . وعندما أتم دراسته ولي قضاء توزر ، وفي هذه الفترة قام بتقسيم وتوزيع مياه واحتها ، ومياه واحة نفطة وقابس ، ثم اشتغل بالتدريس في جامع القصر وقد تخرج عنه جماعة من كبار العلماء والادباء منهم محمد بن عبد المعطى بن محمد النفزي شهر (ابن هريرة) ومحمد بن حيان الشاطبي••• وانتقل لمدة سنتين الى تونس ودرس بجامع الزيتونة • ثم رجع الى توزر لكي يشتغل بالقضاء والتدريس الى أن توفي ليلة السبت (11) من ربيع الثاني سنة 681 هـ ودفن بتوزر في مقصورة محاذية لضريح الشقراطسي •

أخذ هذا العالم والاديب بنصيب وافر من كل فنون المعرفة المتداولة في زمنه فكان شاعرا وكاتبا ولغويا ومؤرخا •

ومن شعره قال معتذرا :

متى اشفقت من سفر بسفر … فلومي ساقط والعذر باد
كتابي كالفؤاد وكيف ارجو … حياة ؛ ان نأى عني فؤادي

وقال معرفا الفصاحة :

ليس الفصاحة الفاظا مسجعة … ولا قريضا غدا بالوزن مشتهرا
بل الفصاحة معنى رائق بهج … يكسوه لفظ بهي يشبه الدررا

ومن قوله في تخميس الشقراطسية (الاستهلال) :

ابدا بحمد الذى اعطى ولم تسل … وذد به ريب وين الاين والكسل
فالحمد احلى جنى من طيب العسل … (الحمد لله منا باعث الرسل)
هدى باحمد منا احمد السبل

اما ما تركه التاريخ من انتاج ابن الشباط فهو قليل بسبب تلاعب الايدى الجاهلة او المتجاهلة به ، ومن الاعمال التى اشتهر بها نذكر : صلة السمط وسمة المرط (فى اربعة أجزاء) فى التاريخ والادب وقد شرح فيه وخمس الشقراطسية وترجم لنفسه فى أوله ، وقد قال الهادى روجي ادريس فى هذا الكتاب : « ... ان هذا الكتاب يعتبر مرجعا أساسيا فى تاريخ الحياة الدينية بمنطقة الجريد فى حكم الدولة الزيرية ، ومن الصدف ان هذا المؤلف الذى هو من النصف الثانى من القرن الثانى عشر له من حب الاطلاع ما دفعه لفحص وثائق أساسية وخصوصا وثائق الارشيف التى تعطينا فكرة واضحة ودقيقة حول نشاط فقهاء المنطقة وعلاقتهم بزملائهم فى القيروان . فالمدرسة القضائية بتوزر تقدم البرهان على قيمة المراكز الاقليمية بافريقيا وتعدد الاتصالات الثقافية بين القيروان وتوزر وسوسة وصفاقس وقفصة وطرابلس من جهة وبقية المدن التى لم يكن لها ابن شباطها من جهة اخرى» .

وقد قال محمد النيفر عنه فى كتابه «عنوان الاريب» «... برع فى العلوم واصبح اماما فيها انتفع به الناس واقتبسوا من معارفه وكان شاعرا مفلقا من شعره تخميس القصيدة الشقراطسية ويقال: إنه شرحها بثلاثة شروح: كبير ووسط وصغير كلها جليلة الفائدة خصوصا الكبير والوسط دل على تبحره

في العلوم . فانه يتكلم على البيت من جهة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والآثار والتاريخ ومن كل علم يمس شرحها ، فكان نزهة الناظر وعنوانا على ما كان في تلك الاعصر من بحور العلم الزاخرة بافريقية

وقد ذكر احمد البختري ان صلة السمط اختصره الامام أبو القاسم بن سعيد العميري الجابري (نحو ربع الشرح) وحذف منه الاصل والتخميس وسماه «بالورد الندى في ترتيل ما تضمنه شرح التسميط المحمدي» وختمه بالاسماء الادريسية . وتاريخ نصه أوائل جمادى الثانية من العام 1159 م . وبآخره كتابة بخط احمد الورغى تتضمن تكليفه من الباى بمقابلة الكتاب المذكور .

أما بقية كتب ابن الشباط المعروفة فهى : سمط الهدى فى الفخر المحمدى والغرة واللائحة والمسكة الفائحة في المعجزة الواضحة والعقد الفريد بالتعريف بأهل الجريد وتحف المسائل بمنتخب الرسائل ودلائل اليقين الى مسائل التلقين والشعبة الشهية والتحف الفقهية وعجالة الروية فى تسميط القصيدة النحوية وتحفة الاكياس فى حسن الظن بالناس ودور السمط فى الفلك ورسالة فى الهندسية وحاشية على شرح صحيح مسلم ورسالة فى تقسيم المياه.

⑤ العصر الحديث :

واعني بها الفترة المتأخرة ، التي تنطلق من أواخر القرن التاسع عشر ، وفي هذه الفترة برزت عدة وجوه كلها غنية عن التعريف لان شهرتها طبقت الآفاق ـ شرقا على الاقل ـ من أمثال أبي القاسم الشابي ومصطفى خريف والبشير خريف ومحمد الخضر حسين ، ولضيق المجال سنكتفي بالحديث عن هذا الاخير .

اسمه الاصلي محمد الاخضر بن الحسين ولد ببلدة نفطة في العام 1873 م حيث تلقى تعلمه الابتدائي ثم انتقل الى تونس حيث درس بجامع الزيتونة وكان من أبرز شيوخه سالم بوحاجب وعمر بن الشيخ ومحمد النجار . وبعد تخرجه أسس في شهر أفريل 1904 م مجلة «السعادة العظمى» وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس . وبعد انقطاع المجلة عن الصدور تولى خطة القضاء ببنزرت وبعدها انتصب للتدريس بجامع الزيتونة ، وأشرف في الاثناء على تنظيم مكتبتها وبعدها استقر في دمشق وانتقل اثناء هذه الفترة

الى الاستانة وبرلين وتواصلت هذه الفترة من سنة 1912 م الى 1920 م · وهو العام الذى انتقل فيه الى القطر المصرى حيث استقر نهائيا الى ان توفي وكان ذلك سنة 1958 م · وقد تقلد أثناء مكوثه فى مصر مناصب علمية عالية أهمها مشيخة الازهر · وأسس «جمعية الهداية الاسلامية» وتولى رئاستها وسمى مجلته باسمها « الهداية الاسلامية » ، كما أنه أنشأ « مجلة الازهر » وتصدى فيها للدفاع عن هذا الجامع العظيم ·

نشر العديد من المؤلفات أهمها كتاب : «رسائل الاصلاح» وهو ثلاثة أجزاء، و«نقض كتاب فى الشعر الجاهلى» و«خواطر الحياة» وهو ديوان شعر و«بلاغة القرآن» و«دراسات فى العربية وتاريخها» و«نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم» ·

⑥ المعاصرون :

يزخر الجريد اليوم بالعديد من الشعراء والقصاصين المتازين والمميزين من أمثال منور صمادح (شاعر) محيى الدين خريف (شاعر) الميدانى بن صالح (شاعر) محمد الصالح الجابرى (قصاص) محمد الهادى بن صالح (قصاص) ·

وقد لعبت مؤسسة « الأخلاء » للشاعر الصادق شرف دورا هاما وخطيرا فى التعريف بأدباء الجريد الشبان بنشرها لانتاجهم وترويجه وفسح المجال لنقده وتقييمه ، فقد نشرت لمحمد علي الهانى مجموعتين شعرتين «الجرح المسافر» و«أهازيج» ومجموعتين شعرتين لحميدة الصولى «الحريق حتى الاخضرار» و«ملصقات على جدار الذاكرة» ومجموعة شعرية لمحمد الامين الشريف «يا حادى الطلق» ومجموعة شعرية لمحمد الطاهر الحضرى «النخل اذ تشهق» ومجموعة شعرية لعبد الحميد مواعدة «الرحيل الى مدن الاحلام» كما نشرت مجموعة قصصية لعمر عز الدين «أشواق بلا حدود» وأخرى للقاص الشاب أحمد الفهيرى : « الوظيفة الثانية لليد » ...

الشاذلي الساكر

الأرض والشيطان

مسرحية : نور الدين بلقاسم

- 3 - (*)

الفصل الثالث

نفس المنظر السابق

(فى بيت الحالة وهو مضاء باضواء خافتة يظهر فيه سرير يرقد فوقه زوجها يوسف .. يظهر راس الرجل مكشوفا يديره ذات اليمين وذات الشمال .. تدخل زوجته مرفوقة بالعرافة صديقتها القديمة ...)

العرافة : (تقف بجانب السرير وتسال الزوجة) ما سبب دائه الاول ؟..

الحالة : ثلة من الكلاب تنابحت عليه وهو فى غفلة ...

العرافة : ما نوع الكلاب ولونها ؟..

الحالة : كلاب ككل الكلاب .. نهاشة .. غدارة .. أما اللون فاننى لا استطيع تحديده .

العرافة : أما لونها فغير مستقر .. إن ألقيت لها العظام يبيض لونهـا ، وإن ضربتها بالحجر يسود لونها ...

العرافة : هذه كلاب عدائية .

الحالة : هل فى هذا من خطر ؟.

العرافة : الخطر فى أن الداء قد تأصل فى رأسه ولكن ...

الحالة : (تقاطعها) ولكن ماذا ؟..

العرافة : لكن يمكن أن يعفى ...

الحالة : لقد كان بلا مرض (تضرب يدها على ركبتها) .

العرافة : كان .. أما الآن فهو مريض ...

---

*) انظر « الفكر » ع : 7 و 8 – س : 31 – 1986 .

الخالة : لكن يبدو فى الظاهر سليماً ..

العرافة : إن أيديهم الخفية تخنقه وتهدر دماءه ، انظرى الى حبل الوريد يهم بالانفجـار ...

الخالة : هل فى هذا خطر محدق ؟..

العرافة : الخطر عابر ...

الخالة : متى يزول ؟..

العرافة : عندما تسكت الكلاب المتسببة فى المرض عن النباح ..

الخالة : لكنها لا تسكت لانها مطبوعة على ذلك .

العرافة : اقتلوها بالسم بالرصاص أو بأى شىء آخر ...

الخالة : ليس لنا سلاح ...

العرافة : قولى ليست لنا إرادة ...

الخالة : كانك تقولين إننا المتسببون فى كل هذا ...

العرافة : **(تدور من ناحية راس يوسف وهو يهزه الى أعـلى وأسفـل فوق الوسادة)** انتم علة ما أنتم فيه ...

الخالة : ليست لنا قوة ...

العرافة : بامكانكم أن تخرجوا الشمس من الشمال ...

الخالة : لقد أكثر من هز رأسه وحطه ... **(تشير الى زوجها)** .

العرافة : لأنه يشكو فراغا فى تفكيره ...

الخالة : إنه إمام ...

العرافة : **(تقول العرافة للخالة كانها لم تسمعها . ثم تكمـل حديثهـا وهى تفتش مخلاة جلدية تعلقها فى ذراعها)** .
ثم هذا الفراغ أحدث له ما يشبه الجنون ، والجنون هو أن يضرب المـرء فى الوهم ولا يستقر ...

الخالة : لم يجد الدواء النافع ...

العرافة : **(تخرج قارورة من مخلاتها)** خذي هذه القارورة ...

الخالة : ما هذا السائل الأصفر فيها ؟..

العرافة : هو ماء الحياة ...

الخالة : وما نفعه ؟..

العرافة : هو ماء سحرى يشربه أعداء الحياة كلما مرضوا بداء التصوف فيها .

الخالة : هذا الذى أبحث عنه إنه مريض كذلك بالتصوف ... ولكن ما هـو مفعـوله ؟

العرافة : (تواصل حديثها) هذا دواء فى أول الامر يحدث دبيبا خفيفـا فى الجسم . ثم يسبب حرارة فى القلب ، ثم قوة فى الجسم والفكر .

الخالة : ما هذه الحرارة ؟..

العرافة : (تدور فى الغرفة) بهـا يستطيـع زوجـك أن يقبل على الحيـاة إقبالا ــ كما يقبل على الآخرة .. فيحتضنها ويأخذها بجد ...

الخالة : كيف يمكن استعمال هذا الدواء ؟..

العرافة : بشرب منه جرعة فانه يبل من مرضه ، أما اذا شرب جرعتين فانه يصير من الثائرين .

الخالة : أتريدين أن نخلصه من مرض لنوقعه فى آخر .

العرافة : أحذرى اذن من أن تسقيه الجرعة الثانية .

الخالة : واذا لم ينفعه هذا الدواء ..؟

العرافة : سنستعمل دواء آخر

الخالة : (تفتش فى خزانة قريبة) .. جزيت خيرا .. خـذي سبحتـه هـذه أجرا .. فنحن لا نملك نقودا ..

العرافة : وحق معفور وعنزار وكشطاط وملك الريح ملك النار لا آخذ منـك شيئا..لقد كنت لى رفيقة قديمة..هيا معالسلامة..حفظه رب هاروت **(تشير الى الرجل المستلقى على السرير ثم تخرج فى هذه الآونة العرافة ، فتغلق المراة الباب ولكنها تسمع طرقا من جديد ، يدخل ابنها الاكبر رضوان وابنها حسان وابنة خالته زنوبة ...)**

الفتاة : (لخالتها) كيف أصبحت حالته ..؟

الخالة : كما ترين ...

حسان : لكن لماذا يحرك رأسه ..؟

الفتاة : (لحسان) هى عادة المجاذيب ...

الخالة : لنسقيه الدواء الآن ...

حسان : من أى نوع هو ؟

الخالة : (وكأنها لم تسمع) يا زنوبة ارفعى رأسه وأنت **(تشير الى رضوان)** ساعده على الجلوس كى لا يسقط قطر الدواء على الفراش ...

يوسف : هاه .. هاه .. جبريل يا جبريل **(تقرب له الدواء فيشرب ولكن تسمع غرغرة فى حلقه ..) .**

الفتاة : امسحى رأسه بقليل من الدواء يا خالة ...

الخالة : ان المرض يتعلق بباطنه ، ففى ظاهره سليم وفى باطنه سقيم ...

حسان : ليتنى طبيب ...

رضوان : ولكن بامكانك أن تصير ...

حسان : اخرجنى المدرس اليوم من القسم لأننى لم ادفع الضمان المدرسى ؟

الخالة : إننى أكاد أجن .

الفتاة : نخرج من محنة لنقع فى أخرى ...

يوسف : (يفيق فيحرك جفنيه وعينيه ثم يأخذ فى حك جسمه من كل ناحية.. ثم ينظر حوله فيراهم فيسالهم ...)

يوسف : مالكم تنظرون إلي هكذا ؟!.

الخالة : (تحدثه وهى تقترب منه) لانك شغلتنا ...

يوسف : منذ متى وأنا نائم ..؟

الخالة : منذ يومين ... بل منذ أربعة عشر قرنا .

يوسف : إنى أحس بشىء فى جسمى لكأنه دبيب نمل يسري فى أعضائى ...

حسان : لعله دليل الشفاء .

رضوان : ويجوز أن يكون إنذارا بحالة خطيرة ..

يوسف : لكأننى كنت فى حلم ...

الخالة : كنت فى حالة غير عادية .

يوسف : (فى قلق) إنى أحس بشىء يثقل رأسى ...

رضوان : لا شىء فوق رأسك .

يوسف : (يقف من فوق السرير ويتلمس رأسه) ولكن ما هذا الشىء الملتوي فوق رأسى ...

حسان : (**لوالده**) هى عمامتك يا أبي ...
يوسف : (**يخاطب ابنه ويعطيه العمامة**) خذها وضعها بعيدا عني لقد أثقلت رأسي .
حسان : سأضعها فى الخزانة القديمة ...
يوسف : (**لزوجته**) وما هذا الذى يثقل جسمى ؟..
الخالة : إنها جبتك القديمة التى تعودت لباسها ...
يوسف : احرقيها بالنار لقد سئمتها ...
رضوان : (**يخاطب امه**) هاتها يا أمى ساحرقها ، وأذرو رمادها للريح .
يوسف : (**يتلمس رقبته فيجد فيها السبحة فيسأل**) : وهذا الشىء المتدلى فى رقبتى .
الفتاة : هى مسبحتك يا عمي ...
يوسف : أحس بها ثقيلة فى رقبتى ... خذيها وانثري حباتها فى الحديقة
الخالة : (**لزوجها**) لكن مالك تتضور ...؟
يوسف : لأننى ما زلت أحس بثقل فى جسمى .
الخالة : لم يبق فوق جسمك الا هذا الثوب البالى ...
يوسف : حاولى نزعه ...
الخالة : (**تحاول ان تنزعه فتعالجه ... ثم تضعه بعيـدا**) الآن لـم يبـق شىء يثقلـك
يوسف : شىء داخلى يحزننى .
حسان : لأنك بقيت طويلا تعانى المرض .
رضوان : لكن الدواء يظهر أنه نافع .
حسان : (**لأبيه**) لو تشرب جرعة من ماء الحياة يا أبى ...
رضوان : (**للفتاة**) هات يا زنوبة الدواء .
الفتاة : خذ وحاذر من اهراقه فهو نفيس ..
يوسف : (ياخذ الدواء من ولده ويتجرعه بينما زوجته تكون غافلة عن ذلك فى ناحية من الغرفة تدير بعض شؤونها ، يهب يوسف فيهتز وقد بدت عليه ملامح القوة ... فيمد يده الى لحيته فينزعها بعنـف ويلقي بهـا على الارض ، بينما الكل ينظرون اليه فى دهشة) :
يوسف : (**للجماعة**) : لقد ملئت قوة .
الفتاة : وملئت عزما .
حسان : وملئت عيناه تصميما .
رضوان : وافعم قلبه حرارة واحساسا بالحياة .

يوسف : (للجماعة) : هيا لنخرج الى الهواء إني أحس باختناق في هذه الغرفة .

الفتاة : الى أين ؟..

حسان : الى الحديقة ...

الخالة : (تاتي وقد سمعت الضجة) مالكم ماذا دهاكم ، أإلى البحر .. ذاهبون ؟.. آه لقد شرب الجرعة الثانية انه سيجن من جديد .. سيصير ثائرا .. الى أين ؟؟..

يوسف : الى المزرعة .

رضوان : ألى ضاحية المدينة ؟

يوسف : الى المزرعة في ضاحية المدينة .

حسان : سأذهب معكم الى المزرعة أنا أيضا .

يوسف : لنذهب كلنا معا .

الخالة : هل بامكانك أن تعمل ؟..

يوسف : لي القوة الآن ، أريد أن تكون للارض هذه القوة ... لا لغيرها ... إنها أمنا الدائمة ..!

الخالة : (حالمة) لكأنك خلقت جديدا .

يوسف : هاتوا الفؤوس .. علينا بالفؤوس .. علينا بالمساحي !.. **(يخرج الاولاد فياتون بالفؤوس على عددهم ويخرجون صفا واحدا من الغرفة وعلى أكتافهم .. الفؤوس بادية .. يسمع في هذه الآونة نشيد يخاله ضرب الطبول ... أصوات تنشد معا ..) :**

يا أيها العمال يا خيرة الرجال
فهدموا الجبالا وازرعوا التلالا
تعالوا للكمال
واخرقوا المحالا بالعزم والنضال
الخير في الدوالي والزيت في القلال
والتين في الرمال وكلها حلال
يا أيها العمال يا خيرة الرجال
تعالوا للكمال

(يسدل الستار عندما يغيب شبح العمال من فوق الركح ... بينما يبقى النشيد يردد باصوات مسجلة ..)

(يتبع)

د. نور الدين بلقاسم

الرابطة القلمية مدرسة التجديد الأدبي

بقلم: د. عيسى الناعوري

كانت (*) الرابطة القلمية ، في المهجر الشمالي الاميركي ، مدرسة التجديد في الأدب العربي الحديث اطلاقا : في الشعر منه وفي النثر على السواء . وقد ظهرت هذه المدرسة بشكل متكامل في شهر نسيان عام 1920 في مدينة نيويورك ، وفي دار جريدة (السائح) التي كان يصدرها عبد المسيح حداد . الا أن تباشيرها بدأت منذ عام 1913 ، على صفحات مجلة (الفنون) ، التي كان يصدرها الشاعر نسيب عريضة . ولكن هذه المجلة كانت تتعثر بين الصدور والتوقف ، الى ان توقفت نهائيا عام 1918 . وكان نواة رابطة التجديد وطلائعها ثلاثة كتاب وشعراء ، هم : نسيب عريضة ، صاحب المجلة ، وجبران خليل جبران ، وأمين الريحاني . ثم انضم اليهم ميخائيل نعيمة عام 1916 ، بعد ان اكمل دروسه في روسيا ، وذهب لكي يتابع الدراسة في جامعات الولايات المتحدة الاميريكية .

فلما توقفت (الفنون) ، التفت هذه الجماعة الصغيرة حول جريدة (السائح) ، واتخذت منها سبيلا الى نشر رسالتها في تجديد الأدب العربي . وحول (السائح) ، وفي منزل صاحبها عبد المسيح حداد ، ولدت الرابطة القلمية برئاسة جبران خليل جبران ، وعضوية ميخائيل نعيمة ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، ووليم كاتسفليس ، ووديع باحوط ، وعبد المسيح حداد ، وشقيقه ندره حداد ، والياس عطاالله ، ثم ايليا أبي ماضي . وأما أمين الريحاني فلم ينخرط فيها — مع أنه كان من أبرز أدباء العرب في المهجر — وذلك بسبب العداء الذي كان مستحكما بينه وبين

(*) سلمنا فقيد الادب العربي الدكتور عيسى الناعوري قبل وفاته بتونس عدة دراسات ننشر واحدة منها في هذا العدد ونرجىء الدراسات الاخرى الى أعداد قادمة .

جبران ، وقد كان كل من الخصمين رأسا ، وليس من الممكن أن يجتمع رأسان على جسد واحد .

لم يكن أعضاء الرابطة متساوين فى أدبهم ، وانما كان البارزون منهم والقادرون على العطاء الجديد خمسة منهم فقط ، هم : جبران ، ونعيمة ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب . وكان الباقون أعوانا وانصارا للرابطة أكثر منهم أدباء منتجين مبدعين . فوديع باحوط لم يكتب طوال عهد الرابطة غير مقال واحد عنوانه (البرغشة) ، ظهر فى « مجموعة الرابطة القلمية » التى صدرت عام 1921 . والياس عطالله لم يكتب شيئا على الاطلاق منذ انتمائه الى الرابطة . وكان وليم كاتسفليس خطيبا ، ولكنه كان قليل الكتابة ، ولم ينشر من خطبه شيئا ، ولا كان فى كتابته شىء من الابداع أو الاشراق الجديد . وعبد المسيح حداد ، صاحب جريدة (السائح) كان صحفيا ، ولم تكن له مشاركة فى التجديد الأدبى ، ولم يصدر له فى زمن الرابطة غير مجموعة قصصية اجتماعية واحدة، هى فى الواقع (حكايات عادية) وليست أقاصيص فنية . وكذلك كان شقيقه ندره حداد ، الذى لم يصدر له غير ديوان (أوراق الخريف) ، ولم يكن يظهر فى شعره طابع الجدة والابداع .

على أن شيئا كان يجمع بين هذه الفئة الصغيرة ، وهو الروح الانسانية التى ينطلق منها أدبهم : الأدب القوى منه والضعيف . وهذا لون من ألوان أدبهم الجديد الذى طلع على المشرق من الغرب ، ففتح عيون الشرقيين على ألوان جديدة غير مألوفة من الأدب الابداعى : الشعرى منه والنثرى على السواء . وسرعان ما انتشر أدب الرابطة القلمية فى العالم العربى بشكل مدهش ومفاجىء ، يحمل معه أشعة جديدة من نثر جبران وشعره ، ومن نقد ميخائيل نعيمه وأقاصيصه وشعره ، ومن شعر ايليا أبى ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب المليء بالعناصر الجديدة الرائعة التى لم يعرف الشعر العربى مثلها ، وفى مثل وفرتها من قبل ، لا فى الروح ولا فى الأسلوب ولا فى العبارة ، ولا فى الاستعارات والكنايات والتشابيه والمجازات ، كما سنرى من الأمثلة التى سنقدمها فى ما بعد .

لقد جاءت الرابطة القلمية مدرسة جديدة فى الأدب العربى : مدرسة حقيقية تقدم وتعلم أشياء جديدة مفاجئة ؛ فيها حرية التفكير ، وحرية التعبير ، وحرية الخلق والابداع ، وحرية العطاء الفنى السخى .

ولكي يكون أدب الرابطة القلمية مدرسة ، لا بد من أن يتميز بجدته وبألوانه . وهذا ما كان فعلا فى مدرسة المهجر الجديدة : مدرسة الرابطة القلمية . وسرعان ما بدأت تعطى ثمارها ، وسرعان ما أتت هذه الثمار أكلها فى البلاد العربية ، وفى أميركا الجنوبية ؛ فقد كانت الصحافة العربية تتلاقفها نقلا عن جريدة (السائح) ، وتنشرها على القراء . وأخذ بعض الادباء والشعراء الشبان فى البلاد العربية يتأثرون بها وبروحها وأسلوبها . وظهرت فى أميركا الجنوبية على أثرها مدرسة مهجرية أخرى ، استفادت هى أيضا من جو الحرية الأميركى ، وتميزت كذلك بحرية التفكير وحرية التعبير ، وبعضها تميز أيضا بجمال الخيال والصور ، وطلاوة الأسلوب ، وحلاوة العبارة .

لقد ظهرت مع الرابطة القلمية فى المشرق دعوة الى التجديد فى الشعر ، هى دعوة أصحاب الديوان . عبد الرحمان شكرى ، وعباس محمود العقاد ، وابراهيم عبد القادر المازنى . وظهرت بعد الرابطة ، فى المشرق كذلك ، دعوة أخرى الى التجديد فى الشعر ، هى جماعة أبولو . ودعيت الأولى جماعة (الديوان) ودعيت الثانية (جماعة أبولو) ، ودعاهما البعض تجوزا (مدرسة الديوان) و (مدرسة أبولو) ، ولم تكن أى منهما مدرسة فى الواقع ، ولم تستطع دعواتاهما أن تثبتا على مسرح الواقع ، ان لدى أصحابهما فكرة صحيحة عن التجديد الذى يريدونه . وكانت دعوة الجماعتين تنصب على العبارة والمظهر الخارجى أكثر مما تنصب على التجديد فى الروح ، وعلى اغناء الادب العربى ، والشعر العربى خاصة ، بعناصر جديدة فى المضمون والروح . كانت المدرستان تدعوان الى التخفيف من تقليد القديم ، ولم تعرف أى منهما كيف تدعو الى روح جديدة متميزة . ولذلك لم يستطع اصحاب الديوان ولا أصحاب أبولو أن يأتوا بشعر جديد حقا ، بل انهم لم يستطيعوا أن يدونوا أسماءهم بجدارة فى سجل الشعراء المبدعين : لم يستطع أن يفعل ذلك شكرى ، ولا العقاد ، ولا المازنى ، ولا أحمد زكى أبو شادى ، مثلما استطاع أن يتميز جبران ، ونعيمة ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب : جبران بنثره وشعره،ونعيمه بنقده ونثره وشعره،وأبو ماضى وعريضة ورشيد بشعرهم الغنى بالرقة وذوب الحنين ، والتحليق فى الصور والخيالات ، والكبر فى المعانى والمضامين الشعرية .

جماعة الديوان وجماعة أبولو لم تستطيعا أن تضيفا الى مضامين الشعر القديم والأدب التقليدى شيئا جديدا ، ولم تتميز شخصيات أصحابهما

الأدبية بأساليب متفرقة متميزة ، كما استطاع أدباء الرابطة وشعراؤهـا أن يتميزوا بشخصياتهم ، ويعرف كل منهم بأسلوبه المتميز المتفرد .

اننا نستطيع أن نعـرف حالا أن هذا أسلوب جبـران ، وذاك أسلـوب نعيمه ، وذلك أسلوب أبى ماضـى ، أو نسيب عريضـة ، أو رشيد أيـوب ؛ فلقد استقل كل منهم بأسلوب خاص به ، يعبر عن شخصيته ، ويتميز به عن الآخرين ، على الرغم من أنهم جميعا انطلقوا من روح واحدة ، وايمـان بعقيـدة أدبية واحدة .

تميز الأسلوب والشخصية هذا كان لونا واحدا من ألوان التجديد التى برز بها أدب المهجر الجديد ، وكانت الألوان الأخرى الى جانبه كثيرة ، ليس من المكن أن نتحدث عنها جميعا فى هذه العجالة ، ولكننا نستطيع أن نتناول بالحديث بعضها . ومن ذلك ما يلى :

1) النقـد الأدبـى :

كان الناقد الوحيد بين جماعة الرابطـة القلمية ميخائيـل نعيمه . وقـد ظهر كتابه النقدى الوحيد فى عام 1926 ، وطبع فى دار المعارف فى مصر ، مع مقدمة لواحد من جماعة الديوان ، هو عباس محمود العقاد . واسم الكتاب (الغربـــال) .

وغريب جدا أن يكون العقاد هو الكاتب الذى يقـدم غربال نعيمه مـع أن النقد الذى يشتمل عليه الكتاب يختلف اختلافا لا حدود لـه عن النقد الـذى يكتبه العقاد ، والذى عرفناه فـى كتاب (الديـوان) الـذى أصدره العقـاد والمازنى عام 1921 ، وفى نقد العقاد كلـه .

أما السبب الذى دعا نعيمه الى طلب المقدمـة من العقاد ، فليس تشابه روح الناقد وأسلوبه ومنطلقه بين الرجلين ، بل رغبة نعيمه فى أن يجد كاتبا مصريا معروفا متحمسا يقدم كتابـه الى الأوساط الأدبيـة العربية ، ثـم لان العقاد كان يدعو فى ما يكتبه الى تجديد الشعر العربى ، وان يكن التجديـد الذى يدعو اليه ــ والذى لم يستطع أن يحققه فى شعره ــ غير التجديد الذى تحقق ــ دون دعوة ولا اعلان ــ فى أدب الرابطة القلمية المهجرية ، وفى شعرها .

لم يكن المهم عند نعيمه ، حيـن اختار العقاد لتقديم كتابـه ، ايمانـه بموافقة دعوة العقاد لتجديد الرابطة ، بمقدار ما كان يهمه أن يقدم كتابه الى العرب كاتب مشرقى عربى منهم معـروف . ومن هنا كان اختيـاره للعقاد ، داعية التجديد فى الشعر .

ولكن ، هل كان يتفق نقد ميخائيل نعيمه ونقد عباس محمود العقاد فى شـــىء ؟.

الواقع أن الفــرق بين الاثنين كان بعيدا بعد السماء عن الأرض : فقد كان نقد العقاد كله شتما وهدما ، وتحقيرا وسخرية ؛ وكان يتناول الشاعــر لا الشعر ، والأديب لا الأدب ، والرجل لا الفكــرة ولا المبدأ ولا العقيــدة أو الرأى . وكان نقد نعيمه عكس ذلك تماما : كان مناقشة للفكرة ، والأسلــوب والروح ، ولا يمس الأديب أو الشاعر المنقود باســاءة .

ولعل مقارنــة بسيطة بين (الغربــال) النعيمــى ، و (الــديــوان) العقادى المازنى ، تستطيع أن تجعلنا نلمس لمس اليــد هذا الفرق الكبيــر جدا بين الناقديــن : الناقد الذى يهدم ويهين بنقده ، والناقد الذى يبنى ولا يحاول أن يسىء ؛ والنقد الذى يتناول شخص الأديــب أو الشاعــر ليجرحه وينهش لحمه نيئا ... والنقد الذى ينــاقش أدب الاديب بأسلوب مهــذب ، وعبارة دافئة ــ وان تكن قاسية أحيانا ــ ولكنــه لا يتعــرض للأديب نفسه بكلمة مهينة . وهذا ما لم يعرفه العقاد فى كل ما كتبه من نقد أدبى .

والحقيقة أن ميخائيل نعيمه كان ناقد الرابطة ومشرعها الأدبى ، وكان الى جانب ذلك يشــارك فى الشعر التأملى الانسانــى ، وفــى الأقصوصة ، والمسرحية النثرية . أما شعره فنجده فى ديوانه الوحيد (همس الجفون) وأما أدبه المسرحى فقد ظهرت له ابان عهد الرابطة القلمية مسرحية عنوانها (الآباء والبنون) . وأما من أقاصيص عهد الرابطة ، فقد ظهرت له فيما بعــد مجموعته القصصية (كان ما كان) .

أما المقالات النقدية التى اشتمل عليها كتابه (الغربال) فقد كان يكتبها قبل ذلك فى مجلة (فنون) وبعد ذلك فى (السائــح) ثم عمــد الى جمعها فى (الغربــال) .

ولقد احتفى العقاد بغربال نعيمه ، واحتفى كذلك بادب الرابطة القلمية الجديد فى المقدمة التى كتبهــا للغربال ، واعترف بأن هذا أدب جديد ، وأن المهجريين الجدد قد استفادوا من جو الحرية الذى يعيشون فيه ، فأبدعــوا أدبا جديدا يستحق الحفاوة والتقدير . وهذا بعض ما يقوله العقاد فــى أدب هؤلاء المهاجرين :

« هبوا كتابنا وشعراءنا العرب فى الأقطار الاميريكية قد ذهبوا بالحرية اللفظية الى أبعد من مداها ؛ فهل ننسى لذلك مآثر هذه الحرية ومحاسنها ، ونجهل الجهل الذى لا مسوغ له ، فنغلق أبوابنا كلها دونها ؟ أليست هي التى فكت عن قرائحهم قيود التقليد وأخرجتهم من مآزق الأوزان المعهودة ، والقافية العتيقة ، وأفهمتهم حقيقة الأدب ، فافتنوا فى الشعر ، وابتدعوا فى أوزان النظم ، وساروا بالأدب فى نهج الحياة والتقدم ؟ أليست لهذه الحرية فضلها المحمود ، وأثرها المرجو فى آدابنا العربية ، ونتيجتها التى تزداد مع الأيام انتشارا ونفعا ؟ بلى ، ذلك حق لا ريب فيه . وان بين أيدينا الآن لهدية من أنفس هدايا تلك الحرية المباركة ، وروحا من الحياة تهب على مقاييسنا الآلية البالية . فلنفهمها مخلصين ولنتقبلها شاكرين معجبين » .

هذا بعض ما قاله العقاد فى مقدمته للغربال من ثناء على أدب المهجر الجديد ، وعلى كتاب (الغربال) . ونحن لو أخذنا نقد نعيمه فى الغربال ، فى نقد احدى قصائد شوقي ، وقارناه بما كتبه العقاد فى كتاب (الديوان) وفى غير الديوان من نقد لشعر شوقى ، لرأينا الفرق البعيد جدا بين روح الناقد الانسان فى تناوله للأشياء ، وروح الناقد الشتام الهدام ، الذى يتناول الأشخاص ليمزق جلودهم ، بدلا من مناقشة أفكارهم وأعمالهم .

ولا بد لنا من الاعتراف بأن العقاد ، بالمقدمة التى كتبها للغربال ،مهد الجو للأدب المهجرى الجديد ليدخل الى قلوب القراء فى البلاد العربية . وهذا ما أراده نعيمه من اختيار العقاد لكتابة المقدمة .

ولست أريد أن أقف طويلا عند هذا الجانب من التجديد الأدبى فى أدب الرابطة القلمية المهجرية ، فثمة جوانب أخرى كثيرة تستحق أن نتناولها بالحديث ، دون أن نعمد الى التحليل الطويل ، والتمثيل المتمادى والجانب الثانى الذى نتحدث عنه ههنا من التجديد المهجرى هو :

2) الانسانية فى الأدب :

وهذا جانب يحلو الحديث فيه ويطول لو أردنا أن نشبعه بحثا . وهو جانب جديد فى الأدب العربى ، الذى عاش طويلا جدا على المدح ، والرثاء ، والهجاء والتهانى ، وعلى النفاق الاجتماعى للتكسب ، وكان حظ الانسانية منه ضئيلا . واذا استثنينا عددا ضئيلا جدا من الشعراء والكتاب ، الذين تبدو

فى أدبهم أحيانا لمحات من الانسانيــة ، تطل من هنا وهناك بين سطورهم ، فان الأكثرية الساحقة من الادب العربى القديم ، والمقلد للقديم ، قــد خلــت من اللمسات الانسانية ؛ بل لم تكن الانسانية بابا من أبواب الأدب فى أى عهد من عهوده ، مثلما كان المدح والهجاء ، والرثاء والتهانى . ولعل هذا أمر يلفت نظر دارس الأدب العربى اليوم ، بعد أن فتحــت مدرسة المهجر الباب واسعا للجانب الانسانى فـى الأدب ، فصار الأديب والشاعر يحســان مــع الانسان ، ومع الحيوان ، وحتى مع الطبيعة ، التى نراها فى أدب المهجريين تحس ، وتتألم وتفرح كالانسان .

فحين يقول ايليا أبو ماضى مثلا :

فدينــى كدين الــروض يعبق بالشذا	**ولو لم يكــن فيه سوى اللص منسلا**
فكم هش للأنســام والنور والنــدى	**وآوى اليــه الطيــر والــذر والنمــلا**
ودينــى الذى اختار الغديــر لنفســه	**ويا حسن ما اختار الغدير وما أحلى !**
تجـىء اليه الطيــر عطشــى فترتوى	**وان وردتــه الابــل لم يزجــر الابــلا**
ويغتســل الــذئــب الأثيــم بمــائــه	**فــلا اثم ذا يمحى ، ولا طهــر ذا يبــلى**

نحس بأن الطبيعة تشترك مع الانسان فى مشاعره المختلفة : فالغدير يختار دينه من صميم الحب لكل المخلوقات ، فيساوى بينها فى مشاعر قلبه الحانية الرؤوم : يساوى بين الطير التــى تجىء اليه عطشــى ، فيقدم لهــا الرى ، وترد عليه الابل فيعاملها بالمثل ، ويقدم لهــا الرى كما قدمــه للطير . حتى الذئب الأثيم يأتى ليغتسل فيه ، ولكنه لا يستطيع ان ينجسه باثمــه ، بل يظل الماء طاهرا ، يسقــى الحيوان والطير ، والعشب والزهر ، والشجر بكرم وسخاء لا ريب فيهمـــا .

ان الصورة هنا هى صورة العدل ، والانسانية ، والمحبة ، والمساواة معا ؛ وهى صورة لم يألفهــا أدبنا العربى القديم قبل أدب المهجـــر .

قلت فى كتابى (ايليا أبو ماضى رســول الشعر العربى الحديــث) ، فى معرض الحديث عن النزعة الانسانية لدى أبى ماضى ، إن ما أعنيه بهــذه التسمية هو « نشر المبادىء الساميــة والمثل العليا بين الناس ، بالدعوة الى الاخاء الانسانى العام ، ومحاربــة النظم التى تباعد بيــن الانسان وأخيه الانسان ، والعمل على خلق مجتمع انسانى يسوده العدل والرحمة والمحبة ، والأخوة الصادقة » .

وقلت فى كتابى (أدب المهجر) ان الانسانية فى مفهومها العام « هى نظرة واسعة الى الحياة والوجود ، والى المجتمع البشرى » .

ولقد وجدت أن من أبسط معانى هذه الانسانية الرحيمة فى أدب المهجر ، وأدب الرابطة القلمية منه بنوع خاص ، « هذا النداء الحنون الرفيق الذى أشاعوه فى الأدب العربى ، وهو : يا أخى ، ويا رفيقى » وأمثال هذه النداءات الأخوية . وقد شاع مثل هذه النداءات بعدئذ فى أدب المهجر الجنوبى كذلك بعد أدب المهجر الشمالى ، وكذلك شاع فى بعض أدب المشرق بعد ذلك ، من أثر مدرسة المهجر . وكان الأدب العربى القديم لا يعرف أكثر من نداء « يا صاح ! » ـ وهذا ترخيم « يا صاحبى » ـ وأكثر ما يرد هذا النداء المرخم ملءا لفراغ فى البيت الشعرى أو فى العبارة النثرية ، ولم يكن ، فى الغالب ، مقصودا لمعناه الانسانى . ولعل المرات القليلة التى ورد فيها هذا النداء بمعناه الصحيح هو فى مثل قول أبى العلاء المعرى :

صاح ! هذى قبورنا تملأ الرحـــب فأين القبور من عهد عاد ؟

فهو ينادى الناس أجمعين متسائلا عن معنى فلسفى وانسانى عام فى الحيـــاة .

ولعل جبران من أوائل من أدخلوا معانى الحب الانسانى العام فى شعرهم وأدبهم . ومن قوله فى هذا المعنى :

« أنت أخى ، وكلانا ابن روح قدسى كلى ، وأنت رفيقى على طريق الحياة ، ومسعفى فى ادراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . أنت انسان، وقد أحببتك ، وأحبك يا أخى . خذ منى ما شئت ، فلست بسالب غير مالك الحق بقسم منه ... فأنت خليق ببعضه ، ان كان يرضيك بعضه . أنت أخى ، وأنا أحبك ، ساجدا فى جامعك ، وراكعا فى هيكلك ، ومصليا فى معبدك » .

أما ميخائيل نعيمه فيقول :

أخى ! ان ضج بعد الحرب غربى بأعماله
وقدس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتا مثلى بقلب خاشع دام
لنبكى حظ موتانا !

ويقول فى قصيدة أخرى :

واجعل اللهم قلبي واحة تسقي القريب
والغريب

ويقول نسيب عريضة ، شاعر الحيرة والتأمل ، وشاعر الانسانية الرحيبة :

يا اخي ، يا رفيق عزمي وضعفي سر نكابد ، ان الشجاع المكابد
فاذا ما عييت تسند ضعفي وأنا بعد ذا لضعفك ساند
سر ، تقدم لكي نخط طريقا لأباة الهوان عند الشدائد

أو يقول فى قصيدة أخرى :

يا ابن ودى ، يا صاحبى ، يا رفيقى ليس حبى تطفلا أو ثقاله
فاجبنى بـ « يا أخى » يا صديقى وأعد ، إنها الذ مقاله
واذا شئت ان تسير وحيدا واذا ما اعترتك منى ملاله
فامض ، لكنما ستسمع صوتى صارخا : يا أخى ! يؤدى الرساله
وسياتيك ، حيث كنت ، صدى حبي فتدرى جماله وجلاله

هذه نماذج قليلة من المعانى الانسانية الواسعة الرحيمة التى أدخلها المهجريون فى الأدب العربى الحديث ، فجعلوا منه أدب حب واخاء ورحمة ؛ وبكلمة أخرى جعلوا منه أدب رسالة انسانية . فلم يعد من بعدهم أدب ألفاظ وتعابير لغوية جامدة ، ولا أدب نفاق اجتماعى للمدح والتهانى ، ولا أدب تباغض وهجاء متبادل .

ولا أرانى بحاجة الى ضرب المزيد من الأمثلة على ما فى أدب المهجر الشمالى ، ومن بعده أدب المهجر الجنوبى ، من المعانى الانسانية فى شعره وفى نثره . وحسبى أن أذكر مثالا صغيرا من شعر الشاعر القروى رشيد سليم خورى ، من المهجر الجنوبى ، فى قوله مفسرا معنى الشق الذى فى حبة القمح ، وهو :

وكانما الشق الذى فى وسطها لك قائل : نصفى يخص اخاكا

وهو معنى انسانى عميق ودود ، لا نعرف أحدا قبل القروى فطن اليه فى كل الأدب العربى الطويل العمر . وكذلك جاءت فى شعر المهجر معان كثيرة جديدة ، وكلها جمال ، أغنى بها المهجريون الأدب العربى الحديث .

أو ليس جديدا فى معناه وفى حسه وفى روحه قول ايليا أبى ماضى :

قال : السماء كئيبة . وتجهما قلت: ابتسم ، يكفى التجهم فى السما
قال : الليالى جرعتنى علقما قلت : ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك ان رآك مرنما طرح الكآبة جانبا وتبسما

ففى أبيات هذه القصيدة معان انسانية كثيرة : فهى تعلم الأمل ، والتفاؤل ، من جهة ، وتعلم الحب والتضحية ، من جهة أخرى ؛ اذ تطلب من المتألم الذى جرع العلقم من حياته أن ينسى طعم العلقم فى فمه ، ويبتسم لعله يدخل البسمة الى حياة الآخرين المتألمين من بنى الانسان .

ومثل هذه القصيدة قصيدته الأخرى (فلسفة الحياة) ، التى يقول فيها :

كن غديرا يسير فى الأرض رقراقا ويسقى عن جانبيه الحقولا
لا وعاء يقيد الماء حتى تستحيل المياه فيه وحولا
كن مع الفجر نسمة توسع الأزهار شما وتارة تقبيلا
لا سموما مع السواقى تملأ الأرض فى الظلام عويلا
كن هزارا فى عشه يتغنى ، ومع الكبل لا يبالى الكبولا
لا غرابا يطارد الدود فى الأرض ، وبوما فى الليل يبكى الطلولا

ولا بأس بأن نورد فى ما يلى صوتا انسانيا ناعما خجولا من المهجر الجنوبى ، المتأثر بأصوات الرابطة القلمية فى انسانيتها . ذلك هو صوت الشاعر نعمه قازان القائل :

الا فاشربوا الماء من جرتى ولا باس ان تكسروا جرتى
اذا كان فيها الحياة اشربوا ، ولا ترفعوها على صحتى !

ونعمه قازان هو صاحب (معلقة الأرز) ، وهو شاعر وقف حياته وشعره على حب الانسانية الواسعة التى لا تعرف الحدود . ونلاحظ كم فى هذا الصوت من شبه بأصوات شعراء الرابطة القلمية .

(يتبع)

د. عيسى الناعوري

هوانا قد يُفرّخ أجنحة ورواية

شعر: محمد الأمين الشريف

يخيل لي ان غزو الكواكب
اهون من وصلنا يا حبيبي
وان المسافات ما بيننا
لا تقاس بغير سنيّ الضياء
فنجمك يا هاجري في النهى
وعبدك مستضعف لا يروم الذرى
فليس لديه مكوك فضاء
فحبك مثل سماء السما .. لا يطال
وحبيّ مثل طيوف السرى لا يرى
انا شاعر لا أتوق
الى سفر في الخيال
بدون رفيق ولا خفقان
بدون ارتعاش
بدون هيام
وما اغنياتي
سوى حجة للعيان
صلي القلب
حين يجيش فؤادك بالعشق
فهو يريك النجوم الخوافي
صليه فقد تجدين لديه من الدفء
ما لم تهبه الغزالة يوما
وتعجز عنه جميع الحواري
هواي حبيبة قلبي خزامى
تزين التلال وكل المراعي
وشجرة فل تضوع
باحلى الجنان
تعالي !
وماري الفراشات في همسها
وارتوي من رحيق الحنان
هواي مرايا ..
أنا استشف بها
خلجات الحيارى
وناظرة من خلال صفاها
احاكي العذارى
هوانا اذا عشته
سيفرّخ اجنحة وروايه

النخل إذ تشهق وواقع القصيدة

بقلم: جمال الدين حشاد

ـ ملاحظات عامة :

«النخل إذ تشهق» باكورة إنتاج الشاعر الشاب محمد الطاهر الحضرى وهى تمثل سنبلة فيحاء تضاف الى آفاق تجربة شعرية ناضجة تتقد خصبا وهذا ليس غريبا عن الشاعر فهو من جيل السبعينات ... جيل التمسك بالوعي الشعرى .. التمسك بخصوصيات القصيدة النضالية ذات اللغة العميقة ...

يقول الشاعر حميده الصولي فى تقديمه لهذه المجموعة : « ولعل فى شعر الحضري ما يدعو الى الاهتمام بالقصيدة / القضية التى تجتمع فيها الى جانب ذلك كل مواصفات القصيدة الحديثة فى شكلها ولغتها ومختلف تقنياتها » .

هذا رأي الصولي فى قصائد الحضري وهو بحق استطاع الغوص فى دياجير القصيدة العربية واستجلاء أسرار الشعر التجديدي ...

والقارىء لهذه المجموعة يلاحظ النزعة الرومانسية الممزوجة بلغة ملتزمة هذه اللغة تشكل روحا بنيوية ذلك أن الشاعر حاول تخليص لغة قصائده من براثن تقليد التجارب السابقة الخاصة بكبار الشعراء كالسياب والبياتى

والدرويش الخ ... وقد نجح فى ذلك واستطاع أن يعي اللغة ويمنحها دورها الذاتي ، الواقعي فى عالم القصيدة ...

والذين يتابعون تجربة الشاعر محمد الطاهر الحضري يلاحظون تطورها تدريجيا فالشاعر لا ينشر كثيرا وهذا ما جعل قصائده رغم قلتها تكون متينة العناصر ومثل هذه التجارب لابد أن تترك بصماتها واضحة على جبين الشعر التجديـدي . .

ان ما أخطه وأقدمه هو فى الواقع ألوان ذاتية تحاول ولو بشيء قليل من بياضها استقراء حيثيات الواقع الحسي للقصيدة وإبراز النـاحية اللامـرئية للون تجربة الشاعر .

ـ الحضـري ... والقضيـة :

من القضايا الرئيسية التى عالجها الشاعر فى هذه المجموعة :

1) قضيـة الحـرية
2) القضيـة العـربية وحـالة الانسـان فى هـذا العـالم العـربى
3) قضيـة الفقـر
4) قضيـة السـلام

ومن خلال هذه القضايا حاول الشاعر أن يلتزم بالقضية الأم ـ الوطن هذا الذى عشقه وتيم به ...

« **وطنـي ..**
وطنـي .. لا .. تهـرب ... » (1)

هذه الدعوة الصريحة بعدم الاستسلام جاءت فى شكل خطابى إلا أنه مع هذا الخطـاب الموجـه لوطنه حاول الشاعر أن يجد الحل لعـدم هـروبه أى استسلامه للواقع المفروض وذلك بتجاوز الحالة العادية لاوجه المعاكس للقضية ومحاولة البحث عن الذات الثائرة فى الذات الاستسلامية ...

« **هـذي الأقفـال ساكسرهـا**

---

(1) من المجموعة الشعرية « النخـل إذ يشهـق » لمحمد الطاهر الحضـري ، الصادرة عن « الأخلاء » ، العدد : 41 ـ السنة : 6 ـ 1984 (ص : 60) .

وساحرق حتى .. اظفاري ..

لافتش عن وجهي المتعب ... » (2)

عند الحضري يكون الشاعر ـ الانسان أكثر تمسكا بوطنه .. أكثر التحاما بالقضية ... هذا الانتماء القومى الوهاج يتجلى واضحا من خلال هذا المقطع ، يزهر فى دائرة الابداع ويجعل الشاعر يعتصم بحقيقة القضية التى يناضل من أجلها ...

فالوطن يحاول الهروب ... يثور على واقعه يبحث عن ملامح النجاة .. ولا يجد الشاعر أمام هذا الموقف المحرج إلا التمرد الفردي ...

حبه للوطن يعني العصيان المر .. من خلال الالتزام بهذه الرؤية الصادقة ، النابعة من الأعماق والداعية الى تجاوز مرحلة الجدب النفسى ... هذه الرؤية تؤكد لنا جمالية اللغة الشعرية وصدق معانيها الخصبة فهى تصور الواقع الذاتى ، الاجتماعى فى إيقاع مرهف وفى موسيقى عذبة تدغدغ الأسماع وكأنها ينبوع ماء طاهر متدفق من بين الأشجار المورقة ...

« ها ابصر :
برقا ... إعصارا ..
تيارا يحبل بالرعب
مرحى ، مرحى ...
قد يولد لى وجه آخر
من هذا الطوفان
الصعب ... » (3)

تتكامل صور القصيدة هنا والغاية من ذلك الوصول الى الهدف المرجو والنتيجة السببية فتارة يرقص فيها الشكل الذاتى وأخرى تكتشف أبعاد الالتحام الروحى ...

الشاعر يبصر برقا ، نورا جديدا يتوهج نضالا فمن واقع تخاذل وطنه يستلهم الحضري أشعاره ... هذا المصير الجديد ـ النتيجة الجديدة التى انتهى

---

(2) نفس المصدر السابق (ص : 60) .

(3) نفس المصدر السابق (ص : 68 ـ 69) .

اليها الشاعر تتجاوز مرحلة الغموض الجدلي وذلك من خلال نظرة واقعية تأخذ لون الاندماج في روح تركيب القصيدة وتتعامل معه بشكل جدي ...

القصيدة هي نفسها صارت جوهر النضال بينما تمثل باقي المكونات الشعرية توابع للقصيدة الأم أي القضية التي من أجلها يستخدم الشاعر اللغة التجديدية الايحائية في واقع القصيدة ذاتها ...

الشاعر يخرج من إقليميته ليدخل من نافذة الغضب وينير سبل الصحو لوطنه فهذا الحب الصوفي يتالق في سماء أشعاره فتنفتح صفحة الطريق السوي ، الوردي يشكل صورة بيضاء تتفاعل مع العلاقات الانسانية فهذه المرحلة هي مرحلة النضج اللغوي أو مرحلة المخاض العنيف ...

ـ الوجه الآخر للقصيدة :

لو أمعنا النظر في الذات الخفية للقصيدة عند الحضري فاننا نجد أنها تشارك الشاعر هيومه ، تفرز موقفه محاولة منها لكسب عدد أكبر من الأشكال الفنية التي تربطها بعالم الابداع ...

القصيدة عند الشاعر تتبنى عناصر الصور الشعرية ويكون بناء الصورة إما عن طريق التشبيه والوصف المباشر أو عن طريق تبادل المحسوسات أو المدركات صفاتها ... ذلك أنها تقدم لنا تارة الصورة البسيطة وتارة الصورة المركبة ...

ويكون التشخيص خاصة بايجاد صفات انسانية جديدة ـ بخلع هذه الصفات على المدركات ...

في القصيدة التي يكتبها الشاعر نلاحظ التحولات في الأشكال الفنية التي تحدث بين الحالة الشعرية وبين الأسلوب المستعمل والذى بواسطته يتحقق الكيان الفني للصورة الشعرية فالشاعر في بعض الأحيان يكتب بأكثر من

(13) نفس المصدر السابق (ص : 93 ـ 94) .

أسلوب ليشكل الصورة الواحدة ، ويحاول إقناع القارىء بلون القصيدة وهذا الاقناع يكون غالبا طوعا منا فالشاعر له من الذكاء الحاد ومن التمكن اللغوي ما يجعله يمهد لنا أرضية خضراء ومورقة لفهم الحدث الشعري دون تعقيد ...

هذه القصيدة تتحرك بصدق داخل شرايين الحلم ، تفرض على الشاعر التعامل مع الالفاظ الربيعية على أساس انصهارها فى الحالة الشعرية المندمجة فى الواقع الذاتى للشاعر وكذلك فى الواقع الاجتماعى غير أنها تجمعها وحدة الشعور بثقل المسؤولية بحركية التغيير ، بالفكر الانسانى ...

ـ كلمة ختامية :

الشاعر فى هذه المجموعة الشعرية كان واعيا لأسباب التفاعل الشخصى مع مكونات القصيدة التى حاول بقدر استطاعته أن يوصلها الى القارىء من خلال البناء الفني الذى بلغ فى بعض القصائد درجة رائقة ..

ونعود من جديد الى علاقة الشاعر بالقصيدة ـ القضية ـ السلام ـ الفقر ـ الرفض ـ الثورة ... فنؤكد أن الشاعر حاول الارتقاء بقصائده الى عرش المعاناة الذاتية وذلك لاستخراج المعدن الذهبى من عمق القصيدة وبلورته فى أشكال فنية خدمة لها ...

الشاعر يكتب والدمة على شفتيه ..

الشاعر يكتب والبسمة على شفتيه ..

الشاعر يكتب والبسمة تخالطها الدمعة بحيث تضطره أن يتفاعل معها ببراءة ...

إذن لننتظر تطور تجربة الحضري من خلال مجموعاته القادمة فلا يمكننا الحكم عليه نهائيا إلا بعد نضج أعماله الشعرية ولعلنا إزاء شاعر قد يلد نفحات نيرة متجددة فى جسد الشعر الحديث .

جمال الدين حشاد

• فصـول الأحكـام :

صدر بتاريخ 1985 كتاب « فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام » للقاضي أبي الوليد سليمـان بن خلـف البـاجي الانـدلسي بتحقيق الدكتور محمد أبي الأجفان .

ومكانة هذا العالم الاندلسي معروفة ومشهورة اذ مع جهوده العلمية كان حريصا على تكوين قوة تنصر الاسلام بالجزيرة الاندلسية وتلـم شمـل ملوك الطوائف بها وملوك المرابطين بالمغرب لكن عوامل التفرقة والانخذال أبت الا ان يكون عكس ذلك .

يسبق النص المحقق مقدمة تعرف بالمؤلف : عصره نسبه مراحل حياته مدى ثقافته وتأثيرها في عصره وبكتابه «فصول الاحكام» مع مقارنته ببعض كتب أخرى وإبراز قيمته أسلوبا ومحتوى وأثرا .

وينتهي الكتاب بفهارس متنوعة .

• النـار تمشـي عـلى الأرض :

صدر لشاكر النابسي بتاريخ 1985 كتاب « النار تمشي على الأرض » في واقع الامة العربية والاسلامية وقضاياها والتحديات التي تواجهها .

والكتاب مجموعة مقالات كتبت في 1983 – 1984 في أربعة فصول: الاول في اتجاهات السياسة الاميركية في الثمانينات وربما فيما بعدها والثاني خواطر شديدة المرارة في واقعيتها في حاضر الثورة الفسطينية وماضيها والثالث في إشكاليات الثقافة العربية المعاصرة وعلاقتها بالسياسة والديمقراطية والرابع

خواطر فى مسائل مختلفة من الاعلامية الى الصفقية الى الحرب الايرانية العراقية أسماها شاكر النابلسى فى تسامح كبير « زوايا حرجة » لكنه أخرجها فى صورة « مستقبل مظلم » للقرن العشرين الذى كان بالنسبة للعرب والمسلمين « قرن الشتات والضياع والهزائم السياسية والعسكرية ... » .

• **مناهج المستشرقين :**

لقد صدر فى إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجرى وضمن « مناهج للمستشرقين فى الدراسات العربية الاسلامية » (الجزء الثانى) بحث للدكتور عبد العزيز الدولاتلى الباحث بالمعهد القومى للآثار بتونس اطلعنا على مستلة منه حيث يعرض لنا الدولاتلى اعتمادا على اتجاهات المستشرقين و « مناهجهم فى دراسة الفنون الاسلامية » نظرتهم لتلك الفنون وجماليتها وابداعها ومدى صبغة عروبتها واسلامها مع تغلب مظهر الروحية البحتة على غيرها من المظاهر من جهة والناحية الزخرفية والخطية من جهة أخرى على الناحية المعمارية .

وختم الدولاتلى بحثه القيم بأنه « لا يجوز الشك أو التشكيك فى «إسلامية» الفنون الناشئة فى الدولة الاسلامية حتى لو كانت عربية أصيلة أو أعجمية أو بيزنطية لان الاسلام لم يقبل الا الاشكال التى سايرت أغراضه مع إثرائها وانمائها وتوجيهها فى اتجاهات حديثة لم تعرف سائر الحضارات السابقة مثيلا لها» .

• **لغتنا السمحة :**

صدر بتاريخ أكتوبر 1985 ضمن « كتاب العربى » بالكويت كتاب لمحمد خليفة التونسى بعنوان « أضواء على لغتنا السمحة » وهو الكتاب التاسع فى السلسلة قدم له الدكتور محمد الرميحى مبرزا بالخصوص أهمية اللغة العربية التى قامت وتقوم عليها القومية العربية لانها الرباط الاوثق بين العرب والوعاء الأتم لتاريخهم وحضارتهم ماضيا وحاضرا ومستقبلا لشمولها ومرونتها وطواعيتها وقدرتها دائما على التطور والاستيعاب .

والكتاب فى أربعة فصول الاول فى الكلمات الدارجة الاصيلة لا الدخيلة والثانى فى القضايا الصرفية والثالث فى القضايا النحوية والرابع بعنوان متفرقات يتناول الفاظا وتعابير مشهورة يقرها المجمعيون .

• **الدولـة الحفصيـة :**

صدر سنة 1984 عن الدار العربية للكتاب بتونس كتاب « الأدلـة البينـة النورانية فى مفاخر الدولة الحفصية » لأبى عبد الله محمد بن أبى أحمـد بن الشماع من تحقيق الطاهر بن محمد المعمورى وبتقديم منه متعلق خاصة بلمحة عامة عن الحياة الثقافية فى عصر الحفصيين الذى تزاحمت فيه التيارات الثقافية الواردة مشرقا ومغربا على البلاد التونسية بينما يتناول كتـاب ابن الشمـاع الناحية السياسية اذ هو استعراض تاريخى لخلفاء بنى حفص تمهد له مقدمة فى التعريف بالمغرب وبتونس خاصة مع ذكر بلـد رادس والسبب الذى من أجله خرق للبحر بمدينة تونس وما يتصل بذلك ثم التعريف بأول من غـزا افريقية من الصحابة مع الملاحظة ان ابن الشماع يعود أيضاً فى آخر كتابه الى الحديث عن دخول العرب افريقية وأسبابه .

ومن المعلوم أن كتاب الشماع أول من حققه صديقنا المرحوم الاستاذ عثمان الكعاك ووقع نشره لاول مرة منذ نصـف قـرن (1936) عن مطبعة العـرب لصديقنا الآخر المرحوم زين العابدين السنوسى الذى كان له الفضل فى تلك الفترة فى تشجيع الادباء التونسيين وابراز الحركة الثقافية الاصيلة .

وليس هذا مما ينال من قيمة عمل الطاهر المعموري فعمله هذا محاولة جديدة تخفف من عناء البحث وتوفر على الطلبة كثيرا من الجهود فى معـرفة المصادر وتناول المعلومات .

• **كتـاب المنصـف :**

صدر بالكويت فى « السلسلة التراثية » الجزء الاول من كتاب « المنصف » للسارق والمسروق منه فى اظهار سرقات أبى الطيب المتنبى لأبـى محمـد الحسن بن علي بن وكيع .

والكتاب من تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم مسبوق بتقديم للمحقق فى التعريف بالمؤلف حياته وثقافته ومؤلفاته وبايضاحات خاصة بكتاب المنصف غايات تاليفه مصادره ومن أطلع عليه وأفاد منه .

ويلى فيما بعد الجزء الثانى الذى سيحتوى على النصوص التى أخل بها الاصل وتخريج الشعر والفهارس العامة للكتاب .

• **بلاغات النساء :**

أصدرت المكتبة العتيقة بتونس من التراث الاسلامي كتاب «بلاغات النساء» للامام أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر من القرن الثالث الهجري بتاريخ جويلية 1985 .

والكتاب مجمع طرائف كلام النساء وملحهن نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن واشعارهم في الجاهلية وصدر الاسلام .

وقد صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب سنة 1908 بالقاهرة بتصحيح وشرح أحمد الالفي .

وهذه الطبعة نسخة من الطبعة الاولى القاهرية أضاف اليها الدكتور محمد أبو الأجفان مقدمة في التعريف بالمؤلف وآثاره وذيلها بفهارس متنوعة للكتاب .

• **مدخل في اللسانيات :**

صدر بتاريخ 1985 عن « الدار العربية للكتاب » كتاب بعنوان « مدخل في اللسانيات » لصالح الكشو .

والكتاب ليس تاريخا للسانيات انما هو كما ينص عليه عنوانه مجرد مدخل لها لكنه يمتاز باستقصاء ارضية فرضيات في الدراسات النحوية المعاصرة مع خلفياتها التاريخية وبمحاولة تقييم العمل اللغوى العربى خاصة في المادة النحوية .

والكتاب من شأنه أن ييسر على الطلبة التحصيل بوضعه بين أيديهم ملخصا لآثار يعسر عليهم ، اما تناولها أو حتى الحصول عليها وترجمة لمداخل وتلاخيص لآثار أعجمية لم يقع نقلها الى اللغة العربية حتى يتم تقريب النحو من مشاغل الطلبة الذين يعنون بالعلوم الانسانية وهو لذلك وثيقة وأداة عمل ضرورية .

• **تاريخ جبل المنار :**

عدد ماى 1985 من سلسلة « الأخلاء » كتاب ممتع عن « بلدة سيدى أبى السعيد » لمحمد أنور بوسنينة يعرف بتاريخها منذ أقدم العصور الى يومنا هذا

وبمعالمها القديمة والحديثة وبالشيخ الصالح الذى سميت باسمه وبما قيل من شعر في مدحه كما يقدم بسطة عن مهرجان جبل المنار (الحرجة) .

ومقدمة الكتاب بقلم الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية سابقا نلخصها فى قوله : « بهذه الصفحات المرتبة بدقة وأناقة وحب كبير فجر ينتظر لحظة الانعتاق ولقد ورد التأليف رسالة حب لسيدى أبى سعيد فى صورة تأليف متكامل يؤنس فيفيد ويمتع فيريح » .

وبآخر الكتاب لمن طلب المزيد قائمة مصادر ومراجع عربية وفرنسية ثرية .

• النظام الاعلامى الجديد :

صدر عن سلسلة « عالم المعرفة » التى يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت كتاب للدكتور مصطفى المصمودى بعنوان « النظام الاعلامى الجديد » .

ومما يزيد فى قيمة هذا الكتاب الذى نعتبره وثيقة قيمة فى قطاع أصبح اليوم من أهم القطاعات وتزداد أهميته يوما بعد يوم لما يقوم به من دور فعال فى جميع القطاعات الاخرى أن المؤلف من الاختصاصيين الدوليين وأنه يقدم بالنسبة المعالم العربى نظرة علمية لنظام عربى جديد للاعلام والاتصال مع طرق علمية وحلول واقعية لاقراره .

« على أن المهم هو أن نحسن تربية الجماهير بأقل ما يمكن من الوسائل وأقصى ما يستطاع من الفعالية والشمول وفضلا عن ذلك فان الامر يتعلق بالاستعانة بالتقنية العصرية من ملازمة الحذر وتوخى الوضوح حتى لا تسيطر علينا هذه التقنية أو نقع فى هفوات الاستلاب » .

• النبى الخدعة :

مجموعة قصصية لمحمد الدرويش الذى أصدرت له « الأخلاء » من قبل مجموعتين قصصتين هما : « شبحها ولعنة الرب » و « الدوران فى المنحى المعاكس » .

ما هذه المجموعة الجديدة فهى صادرة على نفقته وتتفق كل قصصها فى معاناة الانسانلهذا العصر القلقالمقلوب الاوضاعالمذبذب القيمالتدهور الاخلاقالسائر حثيثا نحو الفناء فى أسلوب ممارسة للواقع و المتوقع متميز بالطرافة والغرابة والابتعاد عن مظهر الواقع واكسائه أحيانا ثوب الاسطورة ذات الجو الهلعى أو المأساة ذات الطابع الجنونى اللامعقول .

وهذه القصص التى تتسم بالقتامة والتشاؤم والقلق والسوداوية والغثيان أحيانا يغلب عليها الخيال الخصب لكن من نوع خاص كثيـرا ما يعسـر على القارىء مسايرته أو حتى تحمله .

• الـوظيفة الثـانية لليـد :

مجموعة قصصية لاحمد الفهيرى صدرت فى « **الأخـلاء** » العدد 56 مارس 1985 هى باكورة لانتاج شاب من شباب الجنوب التـونسى وبالتحديـد من جوهرة الجريد نفطة ذات البراعم الطيبة الحساسة الصادقة البسيطة الحـزن والحماس أحيانا المتمسكة دائما بتقاليدها القاسية المتجذرة الاصالة فى أرض صلبة كالنخلة العجفاء أو كالجدة العجوز الصامدة مهما كانت الرياح العاتية والقحط والجفاف والجوارح والنسور والعقبان والغربان المحلقة هائمة باحثة عن الجيف وما أكثر الجيف .

كل ذلك بالمجموعة فى غير تكلف ولا تزويق صفحة أو **صفحات واقعيـة** بسيطة دائمة الحزن والقلق لا يخفف منها سوى طيبة الناس وجمال الطبيعة والمناخ ونورانية الشمس التى لا مثيل لها فى أى مكان آخر .

• وحـدة الوجـود عند الصـوفية فى الاسـلام :

صدر العدد 51 من « **الأخـلاء** » بعنوان « وحدة الوجود عند الصوفية فى الاسلام » لمبروك الصادق السوسى الذى يتطرق بنا من أصول الموضوع أى من الفكرة الاولى التى كانت تبدو فى صورة « شطحة » أو سلوك عابر الى أن نمت البذرة واستوت فى شكل نظرية فلسفية فى الالاهيات .

ولقد أحسن المؤلف صنعا حين مهد لتحليل موضوعه بشرح وحدة الشهود والاتحاد الحلولى اللذين يتحد فيهما حب الله والتوق الى العرفان .

والكتاب **رحلـة ممتعـة فى التصوف الاسلامى** منذ القرن الثانى الهجرى بجميع أشكاله وبكل ما نتج عنه أحيانا من تطرفات وتجاوزات ومآس شخصية ونتائج خطيرة اجتماعية وسياسية .

والبحث فى مثل موضوع « وحدة الوجود » لا يمكن سبره ولا البت فيه فى دراسة أولية كهذه فالموضوع شاسع الارجاء زمانا ومكانا وهو مع ذلك مشترك بين كل البشر لا يكتمل الا بالبحث المقارن ولا يستقيم فى الاسلام الا بالتوفيق والتفكير الاسلامى .

محسن بن حميده

بريد القراء

مازلنا نتتبع تطور الشاعر الشاب : منور العزيزي ونواكب خطاه باتجاه مرتفعات الشعر الواعد .. وها نحن ننشر له هذا القصيد الذى عنوانه : « **امرأة عند انطفاء الأصيل** » تأشيرة الحضور على ساحة الشعر العربى بتونس .. فليواصل ...

ملكوت الأصالة أنتِ
وطاعنة في اللطافة حتى هلاكي
بأي يدٍ أرسم الروعةَ المستبدّة فيك؟
وهذا الجمال ؟
باي انبهار وشوق أراكِ ؟
مجازفة لو تفرست فيك طويلا طويلا
بأعطاف عينٍ
وأنت وراء تخوم الحرير
سبائكُ حسنٍ
تدكّين صرحَ الحياء بعنفٍ
وتستسلمين لآخر بعدٍ بقلبي
وانت معتّقة كالخمورِ
وفي ثورة الإبتسامْ
علّقتُ بكِ كدمٍ جاهلي

وأعانت أنيٍ وشاحٌ لكل مكان
نظرتِ إليه
وسرتِ إليه بأعتى قوامْ

* * *

ذؤابة عشقي
وبارقة الضوء تغمرُ عمْقي
فأنت انتظاري المديد
وأنت على سفر دائم في فؤادي
أيا مرتعا للصباح أنا قادم من أقاصي الوهادْ
فكوني ليَ امرأة تتلهّى بحجم انفعالي
وكوني ليَ امرأة أتلاشى بها كالرذاذ الحلالِ
فهذي براهين بوحي

تمتدّ بمثل المسافة ما بين جُرْحٍ ..
وجُرْحٍ ..
معنّى انا بانطفاء الاصيلِ
لانّي سليل العذاباتِ مِجذافُ بوحٍ
وانت معطّرة بالحنين لفجرٍ خرافي

* * *

ترى كيف يصبح امر الربيع ؟
ترى كيف يصبح جَزري ومدّي ؟
ولونُ الازاهير والوردِ ؟
حبي وحقدي
ولينُ الغصونْ
اذا ما تغيّر فيك أصيلُ العذوبهْ
معينُ الفتونْ .

منور عزيزي

رُدُودٌ سَرِيعَة

◆ **سمراء من بلدي** : هذا عنوان قصيدة راسلنا بها الصديق حسن ب. ع. صفاقس والملاحظ أن هذا الشاعر بدأ يفرض اسمه على الساحة مما يجعلنا لا ننشر له كل ما يبعث به الينا بل نقوم بعملية الاختيار الصعب حفاظا منا على مسيرته الشعرية حتى لا تصاب بالنكسة جراء بعض الهنات التى منها هذا النشاز فى كلمة (نورا) التى لا تتمشى مع قافية القصيدة ورويها نرجو أن يحتاط الصديق حسن من الايقاع بشعره فى مثل هذا الخطأ .

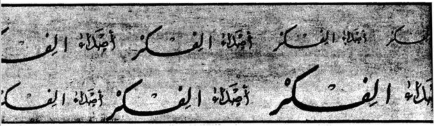
كما نرجو أن يراسلنا بآخر قصائده الشعرية فنحن عازمون على تشجيعه.

◆ **تونس الحب .. تونس الياسمين** : تحت هذا العنوان ما زالت ترد علينا قصائد لبعض الشعراء الشبان وقد وصلتنا من قلعة الاندلس أخيرا قصيدة الشاعر الشاب : المكي. ب. ع. أضاع فيها صاحبها القواعد النحوية تماما حيث نجد القافية اللامية منصوبة بلا ناصب مثلا قوله :

[فاني بحب بلادى عليلا !]   [فقبلي فله ، وأنت البديلا !]

فما الداعى لنصبه (عليل ؟ بديل ؟) .

نرجو أن يعود الصديق المكى الى قصيدته ليحاصر ما فيها من أخطاء كثيرة . وليسمح لنا أن نلاحظ له أن « الضرورة الشعرية » لا تجيز ولا نسمح لها بأن تنسف قواعد لغتنا العربية الجميلة .



● **الوزير الأول يتحدث عن انبعاث مجلة « الفكر » :**

نشرت جريدة « الرباط » مقالا في عددها الصادر يوم السبت 29 مارس 1986 بقلم السيد أحمد المختار جاء فيه ما يلي :

في هذا العصر الذى تآكلت فيه المبادىء وكادت القيم الانسانية ان تتدحرج وخاصة منها ما يربط الفرد الى أرضه وأمته وبني جلدته من مواطنيه الذين يعايشهم على نفس الرقعة من الارض ويقاسمهم لا الخبز اليومي فحسب بل كل المشاعر والاحساسات من آمال وآلام وطموحات وأحلام ... واذا أردنا أن نلخص معايشة الفرد شعوريا لمواطنيه فانما يتمثل ذلك في كلمة واحدة كلمة ذهبية مقدسة كافحت من أجلها الشعوب وسالت دفاعا عنها الدماء هذه الكلمة المفتاح هي بلا شك (الوطنية) .

ولدى تركيزه للغرفة الفتية التونسية كانت مناسبة رائعة التي نيها الاستاذ السيد محمد مزالي الوزير الاول محاضرة قيمة فجر فيها مفهوم الوطنية وحلله بعمق لم يسبق له مثيل مستمدا مقولته الذهبية هذه من روح البورقيبية وقد اعتمد سيادة الوزير الاول في طرحه لمسألة الوطنية طريقة جادة في البحث واضحة في الاسلوب معا اضفى على هذه المحاضرة صبغة الوثيقة التاريخية التي لا بد أن تكون مرجعا للاجيال مهما اختلفت اعمارها وتباينت مشاربها السياسية .

وانطلاقا من المفهوم الصحيح للوطنية فان (الذى يجمع بيننا رغم تفاوت السن واختلاف المسؤوليات هو ايمان مشترك بان ملح الحياة ونكهة العيش والطريق الى السعادة انما تحصل كلها في خدمة الغير وبالبذل والمساهمة في تقدم الانسان ورفع شأنه ... أي اننا لسنا أنانيين اذا كانت السعادة مطلبنا

جميعا ومطلب الناس أجمعين ..) ومن هنا يتضح ان الاستاذ محمد مـزالي يرى ان السعادة ليست كما يعتبر التافهون الكسب الشخصي وبكل الطرق حتى بالكذب والبهتان وذلك هو الفرق بين من اطلق عليهم بجبهة الخير وجبهة الشر ولا فضل لواحدة على الاخرى الا بافادة الغير .

اما النقطة الثانية التي ركز عليها الاستاذ محمد مزالي طرحه لمسألة الوطنية فهي المتمثلة في ان العديد من الافراد نسوا الوطنية واعتبروها تمسكا بمواقف سلفية ابتداء من اعلان الرسول الاعظم صلى الله عليـه وسلـم في الحديث الشريف (حب الوطن من الايمان) ووصولا الى ما قاله الشاعر :

(وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي)

باعتبار اننا تونسيون ــ قبل كل شيء ــ علينا ان نعتز بوطننا وان نعتقد بأن كل من يساهم في الاعلاء من شأنه انما يعلي من شأننا وأن كل من يخفضه يخفض من شأننا) ولذلك فان التونسيين الذين نفث فيهـم الـزعيم الحبيب بورقيبة من روحه مذكيا فيهم شرارة الكفاح ملهبا في قلوبهم جذوة العطـاء والبذل والتضحية ما كانوا ليترددوا لحظة في الاستشهاد في سبيل الـوطن ايمانا منهم بأنهم يستشهدون لعيش ابنائهم واحفادهم أحرارا أعزاء . هـذه هي الصيغة القصوى للوطنية .

ولقد حصلت تونس على استقلالها بفضل تضحيات رجالها ولم يعد المطلوب منا أن نضحي بالنفس كما فعلنا بالامس لكن المطلوب منا الآن هو ان نضحي أحيانا بالنفيس وقد ألح الاستاذ محمد مزالي بالخصوص في هذا السياق وفي نطاق التضحية بالنفيس على نبذ الانانية والجهويات والنظرة القصيرة والكسل والخلود الى الراحة والمتعة ومن هذا المنطلق وعلى هذا الاساس فان التونسي ومن موقع احساسه الوطني الصادق بان ما يهم البشرية من تقدم أو تخلف على حد سواء انما هو داخل في نطاق اهماماته والا كان كالهباء المنثور هائمـا في الفضاء وذلك هو الخطر الكبير ... ذلك ان الانسان انسان في كل عصر ومصر ولا يمكن البتة فصله عن جذوره الانسانية المتأصلة فيه وبذلك (تجسم نظرتنا الثقافية والحضارية مع مستوى الايمان الى حيز الفعل والوجود) ذلك اننا كافحنا الاستعمار لا لمجرد أن تزول فرنسا بل اننا عرب ومسلمون ولنـا شخصية ومقومات حضارية ولا يمكن ان نعيش شرفـاء الا اذا تخلصنـا من هيمنة الاستعمار وذلك وحده يمثل مبدأ تجسيم الوطنية من القول الشعار الى العمل الفعل ورغم شتى الصعوبات والعراقيل فان هذه وتلك تبقى محـك الرجال لان المصاعب والمثبطات هي الفرصة التي يبـرهن فيهـا الصامدون

الصابرون على انهم اعظم شأنا من خلال ما يقدمونه من تضحيات فى صمود ورباطة جأش وعدم استسلام لبلوغ الغاية وكسب الرهان تصديقا لقوله تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

وكمثل للتضحية الوطنية الحق وكتجسيم لمفهومها الصادق النبيل بعث الاستاذ محمد مزالى مجلة «الفكر» (سنة 1955) وبامكانات مادية متواضعة أخرج « الفكر » الى الوجود بعزيمة فولاذية جبارة وصبر أيوبى مع رجال من حملة القلم استطاعت هذه المجلة ان تقف وان تجسد الوطنية المثلى والتحرر والتوق الى الغد الافضل وهنا يقدم لنا استاذنا مزالى رائع الامثلة على التحلي بكل مواصفات الرجل الصامد الذى يعتبر الفكر الحي الخلاق ضربا من ضروب بناء الشخصة الوطنية للبلاد والعباد خدمة للمصلحة الشاملة وفناء فى الصالح العام ولا أدل على ذلك من انه كان يدفع بمرتبه ومرتب زوجته لكى تصدر مجلة « الفكر » فى موعدها كما أنه وهو المفكر الاديب اللامع كان يكتب مقالاته بشتى الصحف والمجلات وللاذاعة بدون أى مقابل مادى وكان يرى فى ذلك واجبا ذلك أنه منذ انشغاله بالكتابة والصحافة والادب ما زال يعتبر نفسه هاويا وتلك دلالة واضحة على ان الرجل يؤمن بالادب الهواية قبل كل شيء اما اذا نزل الادب إلى الحرفة فيصبح الاديب عندئذ مأجورا وتنتفي عندها لذة العطاء والبذل من أجل الآخرين .

وأكد الاستاذ محمد مزالى فى هذا المجال ان لعامل الثقة فى النفس دورا هاما فى تركيز الشعور الوطنى لدى الفرد فليس كل ما هو أجنبى حسن وليس كل ما هو محلي رديء ذلك ما جند له استاذنا قلمه على كل الواجهات الصحفية والكتب التى أصدرها منذ أربعين عاما ملحا على تجاوز المركبات التى غرسها الاستعمار أو حاول غرسها فينا فى العهود المظلمة ولا أدل على ذلك مما رواه الاستاذ محمد مزالى فقد كان مديرا للشباب والرياضة سنة 1964 عندما أرسل العداء التونسى محمد القمودي لتربص برومـا فاحتك هذا الاخير برياضيين أجانب من أوربا وآسيا وافريقيا وكانت النتيجة حصول عدائنا القمودي على أكبر الالقاب العالمية وأعظم البطولات وذلك ما يؤكد بطريقة أو بأخرى عدم تخاذل الانسان التونسى وكسبه الثقة فى نفسه وبذلك (يعمل على اجتثاث مركبات النقص وغرس الثقة فى النفس لدى التونسيين مؤكدين ان التونسى لا يقل ذكاء وعزيمة وجاشا عن أى بشر) .

وعندما يتجاوز الانسان مركباته ويخلع عنه العقد الزمانية والمكانية فانه فاعل العجاب لكن الفشل لا يساوى اليأس بالمرة وعليه ان يعيد الكرة مرة

ومرة حتى يبلغ المرام وكلنا عند الولادة سواء غير ان الفوز بقصب السبق يكون لمن يعمل ويجد ويكد أكثر من الآخرين ...

لقد عاش الاستاذ محمد مزالى تجربة كبرى بمجلة « الفكر » حيث لاقى الصعوبات والعراقيل ومع ذلك فهو قد صبر وصابر حتى ناله فخر الجهاد الادبى الرائع بتخليده واحدا وثلاثين مجلدا ستكون مرجعا فريدا ومنهلا عذبا للاجيال التونسية والعربية وستظل شاهدا قائما على صمود رجال ونضال أديب وحنكة وطنى غيور خدم الوطن لفائدة الوطن دون ان يرتجى من أى كان جزاء ولا شكورا همه ارضاء الله والوطن والضمير .

وما أروع كلمات الختام لدى استاذنا الكبير محمد مزالى لقد تمثلت هذه الكلمات فى ميثاق ذهبى نابع من الاعماق الوطنية ... ميثاق الشرف الاكيد الذى لا بد ان يتحلى به كل مواطن وطنى بحق ذلك ان استاذنا يعلنها جهارا فيقول : (انى لم أسع أبدا لان أجلب أحدا الى صفي وقصارى أملي ان الذين يكونون الى جانبى انما يختارون ذلك لايمانهم بنفس المبادىء والقيم التى أومن بها .. ان الذى بينى وبينهم هو ذلك الذى بينى وبين الله وبين الوطن ولا شىء غير ذلك) .

والمهم لدى وقوفنا على هذه العبر الخالدة من مقولة الاستاذ محمد مزالى هو انه حلل لنا مفهوم الوطنية والمواطنة بصفة لم نعهدها من قبل لدى كل من تناولوا هذا الموضوع الحساس الضارب فى جذورنا والذى تناسيناه فى غمرة الاحداث الهامشية سواء بالداخل أو الخارج ... لقد أعاد الينا هذا الحديث الشيق وطنيتنا فاعتنقناها وعانقناها من جديد كما لو كنا فى لحظة اندهاش وتأمل عفوي وذلك لان كل كلام عن الوطنية صادر من وطنى أصيل ومن وجدانه وأعماقه انما ينفذ الى أعماقنا والى كل وجدان وعقل وضمير محب للوطن والخير والانسانية الشاملة الحق وما الانسانية الا مواطنة وما الوطن الا وطن الانسان .

● **الثقافة هى الركيزة الاساسية للتنمية الشاملة :**

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « مرآة الوسط » فى عددها 42 الصادر بتاريخ 6 مارس 86 حديثا للاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية سابقا توجه الى الاذاعة الجهوية بصفاقس وجريدة «مرآة الوسط» وقد أجراه الزميل محمود الحرشانى وجاء فيه ما يلى :

أعطى الاستاذ البشير بن سلامه منذ مجيئه الى وزارة الشؤون الثقافية دفعا كبيرا تجلى خاصة فيما أصبح يحظى به القطاع الثقافى عموما من دعم

ورعاية من قبل الحكومة وايضا من قبل كافة المؤسسات والهيئات . وقد شهدت السنوات الخمس الاخيرة ميلاد العديد من الهياكل والمؤسسات التى يندرج احداثها فى اطار هذا التمشى الجديد للسياسة الثقافية فى البلاد . مثل احداث المسرح الوطنى وبيت الحكمة وأخيرا وليس آخرا : بعث المجالس الجهوية للثقافة فى كافة الولايات خلال المدة القريبة الماضية . وقد جاء بعث هذه المجالس الجهوية للثقافة مثلما أوضح ذلك الاستاذ البشير بن سلامه ليشكل السلطة العليا للثقافة فى الجهة . ويجسم خير تجسيم ديمقراطية الثقافة ولامركزيتها الحقيقية . باعتبار ان هذه المجالس مطالبة بوضع المخطط الثقافى الجهوى ومتابعة تنفيذه وتحقيق مساهمة الجهات فى العمل الثقافى العصرى كما شهدت السنوات الاخيرة احداث صندوق التنمية الثقافية الذى أعطى حركة الانتاج الثقافى من أدب ومسرح وموسيقى وسنما دفعا لم يشهده من قبل اذ ان هذا الصندوق يخصص سنويا اعتمادات هامة جدا لشراء الانتاج الثقافى .

وتجسم هذا التمشى الثقافى الجديد أيضا فيما اصبحت تعيشه البلاد سنويا من تظاهرات ثقافية مسترسلة ونشاط متواصل .

وقد حظيت « مرآة الوسط » بلقاء الاستاذ البشير بن سلامه مهندس هذا التمشى الثقافى الجديد فى تونس وأجرت معه حديثا مطولا تناول عديد العناصر المكونة لواقع وآفاق السياسة الثقافية فى بلادنا .

وفيما يلى النص الحرفى لهذا الحديث :

سيدى الوزير ،

اعطيتم منذ مجيئكم الى وزارة الشؤون الثقافية دفعا كبيرا للقطاع الثقافى، ارتقى به الى مصاف الاهتمامات الاولى لرئيس الدولة والحكومة ، أين تظهر لكم مظاهر هذا التحول ؟ وما هى أبرز علامات هذا التمشى الثقافى الجديد للمجتمع التونسى ؟

بتوجيهات من المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة وبدعم ورعاية من الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول ووزير الداخلية ، وصل القطاع الثقافى منذ سنوات الى ضرورة ان يتحول فى اتجاه محمود ، ومتواصل مع ما قامت به وزارة الشؤون الثقافية منذ تاسيسها .

وفى هذه الفترة كان من الواضح ، انه يجب ان تكون الثقافة ركيزة اساسية فى التنمية الشاملة ، وان تكون هى الارضية التى تنطلق منها كل الاعمال عند المبدعين . ولهذا أصبحت الثقافة من اهتمامات كل القطاعات سواء

كانت اجتماعية او اقتصادية او سياسية ولم تصبح حكرا على وزارة الشؤون الثقافية ولا على رجال الثقافة فقط . بل انه بتشريعات وبكل ما قمنا به من اجراءات ، قطعت الثقافة شوطها في هذا الاتجاه ، واصبحت من مشاغل كل المواطنين وكل الهيئات واصبح ضروريا ان تشرع في كثير من الميادين سواء كان المسرح او السنما أو الفيديو. وكان من الواجب ان نبعث مؤسسات كالمسرح الوطني وبيت الحكمة والمعاهد العليا وهياكل اخرى كصندوق التنمية الثقافية، الى غير ذلك من هذه المؤسسات التي جعلت الميدان الثقافي يستقطب كل الاهتمامات ويجعل الثقافة من اهتمامات كل المواطنين وكل المسؤولين .

هذا هو بايجاز التمشي الجديد للسياسة الثقافية في هذه السنوات وهي الآن تاخذ منعرجا آخر ، وجديدا لتركيز المجالس الجهوية للثقافة ، التي ستبرز مسؤولية الجهة في تخطيط العمل الثقافي ومراقبته ورعايته ، ونريد ان تكون هذه المجالس هي العين الساهرة لوزارة الشؤون الثقافية .

ولهذه الصورة تحقق اللامركزية الثقافية الحقيقة وديمقراطية الثقافة ذلك ان الثقافة سوف لن تكون مملاة مسطرة من جهة معينة بل ستكون حصيلة الحوار المستمر والتشاور المتواصل .

سيدي الوزير ، الجديد ، الجديد ، هو هذا القانون الذي امضاه رئيس الدولة منذ ايام والخاص لتنتظم الفنون الدرامية ، ما هي الآفاق التي يفتحها هذا القانون لتطوير الفنون الدرامية في بلادنا ؟

هذا القانون ياتي في صلب العمل الذي تقوم به وزارة الشؤون الثقافية ، في اصدار هذه التشريعات حتى لا تبقى الثقافة أمرا هامشيا وكماليا ، بل لا بد من تنظيم هذه القطاعات التي اصبحت هامة جدا ، وخاصة المسرح بعد احداث المسرح الوطني او الفرق المحترفة التي لها حقوق وعليها واجباته وهذا القانون لا يرتبط فقط بالمسرح بل يتجاوزه الى كل الفنون الدرامية سواء كان في الاذاعة او السنما ، والقانون يهدف الى تنظيم هذا القطاع وتحديد واجبات كل من ينتسب اليه ويضبط حقوقه ويجعله يطمئن على مستقبله . وهو كذلك اطار ينظم هذا الفن ، إلا ان اصدار هذا القانون ـ وان كان ضروريا ـ غير كاف للنهوض بالمسرح النهضة التي نؤملها جميعا له .

سيدي الوزير ، تربطكم عشرة طويلة مع الاستاذ محمد مزالي كمثقف وكوزير ، نريد أن تتبسطوا لنا في أعماق هذه العشرة وعلى الصعيد الثقافي بالخصوص ونتائجها ؟

هناك علاقة متينة وعشرة تربطني بالاستاذ محمد مزالي منذ زمان طويل . وما نحققه الآن في الميدان الثقافي انما هو يأتي من صلب هذه القناعات التي ضبطت اثناء هذا النضال الطويل سواء ذلك في مجلة « الفكر » او في اتحاد الكتاب التونسيين او في ميادين اخرى . خاصة لجان الحزب ، وكل هذا جعل ان هناك توافقا عفويا بيني وبين الاستاذ محمد مزالي . وكل ما نقوم به انما هو إرضاء للضمير وخدمة لهذا الوطن . وهذا ما علمنا اياه المجاهد الاكبر منذ ان انتسبنا الى الحزب وناضلنا في صفوفه منذ سنة 1947 .

سيدي الوزير ، في نهاية هذا الحديث معكم ، وحدة المغرب العربي ، هل تتحقق ثقافيا ؟

نعم ، ويجب ان تتحقق ثقافيا ، وقد بدأنا مع الجزائر بعمل مكثف فيما يخص التبادل الثقافي ، وبهذا فنحن ، نعمل على ازالة الحدود الثقافية بيننا وبين الجزائر شيئا فشيئا ، ويجب ان تتحقق وحدة المغرب العربي ثقافيا، وهي الاساس لتحقيق الوحدة السياسية ، فقبل الوحدة الاقتصادية والوحدة السياسية ، لا بد ان نعمل جميعا لا كحكومات وانما كمؤسسات وجهات ثقافية ، وكنواد وكمثقفين ، ان نعمل على ربط الصلة بين كل خلايا الثقافة الموجودة في المغرب العربي الكبير حتى نصل الى هذه الوحدة التي لا تصنع الا بمد الجسور وبارجاع النسيج الثقافي بين بلدان المغرب العربي الذي كان موجودا خاصة قبل الاستعمار .

● **إقالة البشير بن سلامه من وزارة الشؤون الثقافية :**

جاء في مجلة « القبس » الكويتية الصادرة في 1986/5/19 خبرا عن إقالة الرئيس بورقيبة للبشير بن سلامة نورده كما هو :

« في غياب المعلومات عن أسباب التعديلات الوزارية الاخيرة في تونس .. أخذ التونسيون يجلسون يوميا في المساء أمام التلفزيون في انتظار الخبر المهم .. وبعد ان هجر عدد كبير من التونسيين التلفزيون التونسي الى التلفزيون الايطالي الذي يلتقط في تونس منذ 25 سنة والذي يقدم برنامجا اخباريا ممتازا عادوا اليه يتابعون اخباره في ما يشبه « العبادة » ويحاولون تحليل الاشارات ومعانيها .. والملامح ومقاصدها ..

في مساء الثلاثاء 13 مايو .. كان السؤال .. ماذا يعني استقبال الرئيس الحبيب بورقيبة للوزير المقال البشير بن سلامه وزير الثقافة السابق «واقفا» ؟ وماذا يعني طول المقابلة النسبي ؟ وماذا يعني هذا الحديث ــ الواضح انه مريح ــ بين رئيس الدولة والوزير المقال بمشاركة رئيس الوزراء السيد محمد مزالي في غمرة من الانسجام و « الارتياح » ؟

هذه الأسئلة فرضها وضع سياسى معين تعيشه تونس منذ بضعة أسابيع ويشهد مع مطلع كل أسبوع « أى يوم الاثنين بالنسبة لتونس » تعديلا وزاريا عادة ما يطيح باحد الوزراء المقربين من مزالى ..

وبدأ الامر بابعاد المازرى شقير الرجل الاقرب ومحل ثقة السيـد مـزالى والذى كان يحتل منصب وزارة الوظيفة العمومية والاصلاح الادارى وهى وزارة مركزية رغم تسميتها العادية فهى الوزارة التى « تهضم » و « تجتر » العمـل الوزارى الشامل قبل ان تقدمه على طبق من فضة الى مجلس الوزراء ، وهى الوزارة التى تتولى التنسيق مع الوزراء .. ومع البرلمان ...

ومع المازرى شقير فقد وزير آخر مقرب من مـزالى وان كان جديـدا على الحكومة منصبه وهو وزير الشباب والرياضة الهادى أبو ريشه وكان المراقبون يتساءلون عندما تم ذلك فى منتصف شهر ابريل .. « هل ان الامر سيتوقف عند هذا الحد .. وهل سيعنى أنه بداية تصفية محيط مزالى فى الحكم ؟

وتتوالى التعديلات التى تعصف يوم الاثنين باحد الوزراء المقربين من مزالى دفع الاعتقاد أكثر فاكثر بان الامر يبدو وكانه اضعاف « للوزير الاول » عشية مؤتمر الحزب الدستورى الذى سيعقـد لاول مـرة منـذ 5 سنوات بعد أقل من شهـر .

ومجموع التعديلات التى شهد كل واحد منها خروج احد المقربين من الوزير الاول بلغ حتى الآن 3 ، احدهما شهد مغـادرة الوزيـر الاول نفسـه لـوزارة الداخلية التى تولاها مع رئاسة الوزارة منذ ثلاث سنوات وبضعة أشهر عدا خروج وزراء الحكومة ..

ومن المؤكد ان مزالى قد يكون تاثر كثيرا بعد ابعاد البشير بن سلامه وذلك لسببين على الاقل وهما :

1 ـ لان الرجل مقرب جدا من مزالى منذ ثلث قرن على الاقل وكان قد انشأ معه مجلته « الفكر » التى تعتبر المجلة الادبية الاولى فى منطقة المغرب العربى والتى بلغ صداها المشرق العربى .

2 ـ لان البشير بن سلامه كان الاقدر على تنفيذ سياسة مزالى كمثقف ومهتم بتطوير الثقافة فقد شهدت فترة ولاية ابن سلامه لوزارة الثقافة من المنجزات ما لم يتحقق خلال 25 سنة من وجود الوزارة حيث تم فى عهده انشاء صندوق التنمية الثقافية بموارد خاصة معتمدة على ضرائب مخصصة وامكن بواسطته دفـع حركة النشر عن طريق شراء الدولة فى القطاع العام والخاص وازدهرت بذلك حركة النشر واصبحت الساحة زاخرة سنويا بعدة عشرات واحيانا مئات من الكتب الجديدة المنشورة .

كما تم دفع الانتاج السنمائى عن طريق منح مخرج كل فيلم «مبلغا محترما» يغطي جزءا وافرا من التكاليف وبعد ان كان ظهور فيلم سنمائى حدث يحصل كل 4 أو 5 سنوات مرة تحول الى حدث يتكرر عدة مرات فى العام .

ولم يكن المستوى دائما وفق المراد ولكن كانت الفلسفة تقوم على انه لا بد من ان يظهر فى الكثرة قلة تنال الرضا ..

وفيما عدا هذا انشئت «بيت الحكمة» وهى أكاديمية أدبية وعلمية بدأت تعمل بطاقتها كاملة ، وانشئت فرقة وطنية للموسيقى العربية وفرقة حكومية للمســرح .

غير انه وفيما عدا خسارة رجل نذر نفسه للثقافة منذ شبابه الاول فان مركز الاهتمام كان متمثلا فى الجانب السياسى والخاص بمدى ما إن كان إبعاد « رجال » محمد مزالى سيتواصل وان كان هذا سيؤثر على الرجل فى المستقبل المنظــور » .

● **ثقـافة وزيـر مضـى ! :**

تحت هذا العنوان نشرت جريـدة « الصبـاح » فى عددها الصادر يـوم الخميس 29 ماى 1986 فى ركن « بطـاقة » بقلم الزميل الصديق صالح الحاجة كلمة جاء فيها ما يلى :

أكثر من مرة قلت للاستاذ البشير بن سلامه : اننا لم نعد نستطيع ملاحقة النشاط الثقافى.. فهو ثري ومتنوع ومسترسل.. ثم انه مكثف بشكل لا يمكن لاى كان من هذه الاجهزة الاعلامية الكثيرة ان تغطيه التغطية الكاملة . ويصمت ولا يعلق .. فهو يعتبر هذا النشاط .. وهذا العمل .. وهذا الجهـد

وكان الاستاذ بن سلامه يستمع الى قولى هذا فيبتسم ابتسامته المعهودة .. أمرا طبيعيـا جـدا لا يحتاج الى تعليق .. والعكس هو الذى يستحق ابـداء الملاحظة .. والتعليق .. وحتى النقد .

وكنت أقول للاستاذ بن سلامه ما أقول لا من باب المجاملة أو الاطراء وانما من باب تسجيل حقيقة والتعبير عن واقع .. بل كثيرا ما كنت اقول ذلك من باب الاعتذار .. فالحياة الثقافية فى عهد هذا الوزير كانت فعلا مزدهرة ذلك الازدهار الذى ما رأيت له مثيلا لا هنا فى تـونس .. ولا فى الاقطار العربية التى أعرف واقعها الثقافى .

ورغم هذا النجاح الباهر الذى حققه الاستاذ بن سلامه .. ورغم انجازاته المتلاحقة .. ورغم نشاطه الدؤوب المخلص .. لم يكن الرجل الا كما عرفته منذ ما يزيد على العشر سنوات .. كان دائما يقول : أنا هنا أؤدي عملا وطنيا شريفا .. وليس علي الا ان أؤديه بأمانة .. واخلاص .. وليس لى ان أطلب جزاء أو شكورا .. لان المسألة مسألة ايمان .. ومحبة .. واقتناع .

وكان من حق هذا الرجل ان يسمح للغرور ولو قليلا بالتسلل الى نفسه.. فلقد أنجز ما لا أحد أنجزه .. ولقد أضاف ما لا أحد أضافه .. فى ميدانه ومجاله طبعا .. ولكنه مع ذلك بقي فوق الغرور .. والزهو .. والخيلاء .. وظل ذلك الصديق .. وذلك الاديب .. وذلك المثقف الذى ما غيره كرسى .. وما أفسده منصب !

ان الثقافة العربية فى تونس كانت فى عهد البشير بن سلامه كأنها فى حلم من هذه الاحلام العظيمة .. النبيلة التى يراها الرائى فلا يملك الى أن يعترف ويقر باستحالة تحولها الى واقع .. انه لا يستطيع ان يتوهم انها من الممكن والجائز ان تصبح ذات يوم قطعة من حياة الناس .

لقد انتعشت تلك الحياة .. وازدهرت .. واينعت .. وتفتحت .. وازدادت حياة .. وتوهجا .. وقيمة .. وتأثيرا .. وتحولت الى حديقة تتعايش فيها جميع الاشجار .. والازهار .. والطيور ..

لقد كانت حديقة الألف فكرة .. والألف كتاب .. والألف مشروع .. والف مكتبة .. والف طموح .

● **دار الكتب الوطنية تحتفل بالذكرى المائوية لمولدها :**

نشرت جريدة «العمل» بقلم الزميل المنصف بلقاسم مقالا حول المكتبة الوطنية التى احتفلت أخيرا بالذكرى المائوية لتاسيسها وقد جاء فيه ما يلي :

احتفلت دار الكتب الوطنية التونسية أخيرا بمرور مائة سنة على تأسيس نواتها الاولى واعتبارا للدور الطلائعي الذى ما انفكت تقوم به هذه المؤسسة رأينا أن نعد القراء ببسطة ضافية عن أهم التحولات والتطورات التى شهدتها على مر السنين ونحن بهذا الاستعراض السريع لا نرمى الى الالمام بكل جوانب

النشاط لهذه الدار بل توجهنا ينحصر فى تبيان الاهـداف التى سعت الى تحقيقها هذه المؤسسة بعد ان تخلصت من هيمنة الاستعمار فبقدر مـا كانت النوايا مشوبة بالغموض عند بعث النواة الاولى فـان تخليص البـلاد مـن الاستعمار على أيدى الزعيم الحبيب بورقيبة كان نقطة تحول حاسمة فى اعطاء هذه المؤسسة بعدها الاسلامى العربى الافريقى وارساء علاقة تعاون متينة مع فرنسا على وجه الخصوص والتفتح على الحضارات فى مشارق الارض ومغاربها عن طريق شبكة التبادل التى شهدت قفـزة عمـلاقة من حيث التنظيم وربط

علاقات تعاون مع دور الكتب وقد توجه هذا المجهود الحكومى الجبار بالشروع فى بناء دار جديدة تتلاءم والتطور المشهود الذى عرفته بلادنا فى جميع المجالات بفضل رعاية الرئيس الحبيب بورقيبة وتفانى حكومته برئاسة الاستاذ محمد مزالى فى العمل على اكساب هذه الدار مزيدا من الاشعاع على الصعيد العربى والافريقى والدولى وفى هذا الاطار لا بد ان ننوه بالدور الذى تقوم به وزارة

الشؤون الثقافية وعلى رأسها الاستاذ البشير بن سلامة فى الاحاطة بمتطلبات الدار من حيث التجهيزات والتنمية اليومية لرصيدها حتى ان المحلات الحالية لم تعد قادرة على استيعاب الآلاف المؤلفة من المصنفات وهو ما حدى بالوزارة الى وضع مشروع بناء دار جديدة حين التنفيذ، وقد حرص سيادة الوزير الاول على وضع الحجر الاساسى فى حفل مشهود جسم كأحسن ما يكـون التجسيم عناية الدولة البورقيبية بدور البحث والدرس وحرصها المتواصل على صيانة التراث القومى وحفظه .

● **براءة لكتاب « ألف ليلة وليلة » من القضاء المصرى :**

بعد المعركة الفكرية الكبيرة التى جـرت فى السنـة المـاضية بين الادباء والصحفيين على اختلاف مشاربهم السياسية والفكـرية ، اصـدرت محكمـة استئناف آداب القاهرة قرارا ببراءة كتاب « الف ليلـة وليلـة » فى القضايا الاربع التى كان قد صدر حكم ابتدائى فيها بمصـادرة الكتـاب فى السنـة الفـارطة .

واستبشر رجال الفكر فى مصر بقرار المحكمة وقالوا عنه : إن هذا القرار أكد مرة أخرى على الأصالة الفكرية الحضارية والشرق الفكرى المتجدد لدى الشعب المصرى ، وأنه انتصار عظيم لحرية الرأى ، ودليل يؤخذ على أن مصر تمر بمرحلة انفتاح فكرى حقيقى .